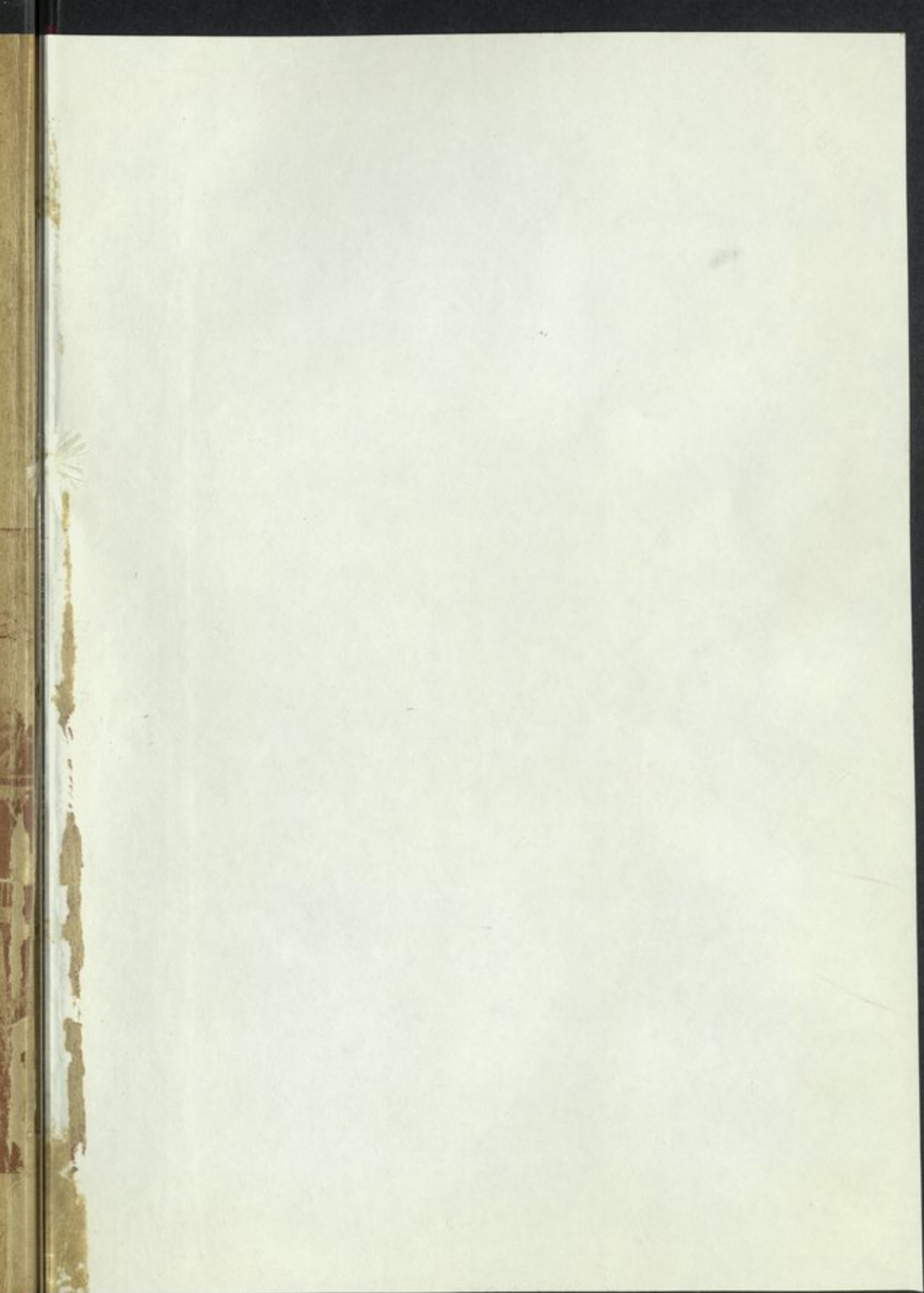


A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B. LIBRARY



نساء الرهبنة المسيحية في مصر

وقوانين

القديس باخوميوس

بقلم

الدكتور عزيز سوربال عطية

أستاذ تاريخ القرون الوسطى بجامعة فاروق الأول

والأستاذ السابق بجامعةات بون ولندن ولقربول

CA

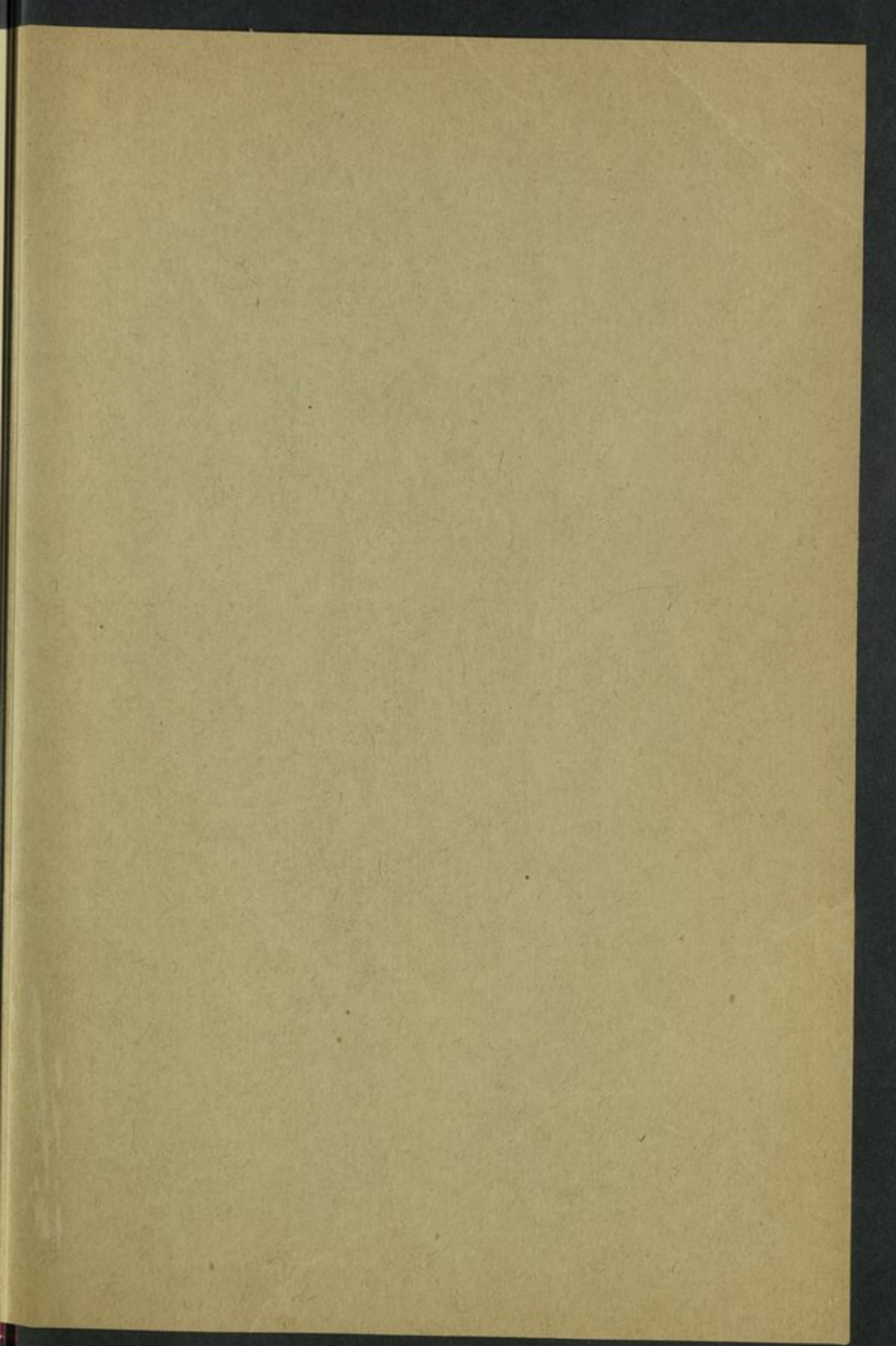
281.7

A872mA

C.1



(مستخرج من رسالة مار ميثا عن الرهبنة القبطية - ٢٢ مايو ١٩٤٨)





القديس أنبا باخوميوس

٢٢٩٠ - ٢٤٤٨ م

Π
Δ
Χ
Ω
Π



Π
Ι
Δ
Β
Β
Δ

رحيمه رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٢٢٦ - ١٢٢٧

نشأة الرهبنة المسيحية في مصر

وقوانين

القديس باخوميوس

١ — مقدمة

تاريخ الرهبانية العام من الموضوعات التي كانت محل بحث وتأليف واسع النطاق في الدوائر العلمية والتاريخية منذ أن كانت هنالك نهضة في البحث والتأليف وإحياء تراث المدينة المسيحية . ولا شك أن الفضل في ذلك يرجع لحد كبير إلى أولئك الجماهيرة من الرهبان الذين ازووا عن الحياة الدنيا وما يكتنفها من مستوإيات إلى مكشبات الأديرة حيث عكفوا على الدرس والتنقيب في ذلك الجو الصوفي، فتضاعف بذلك إنتاجهم إلى درجة تبلغ حد الإعجاز ، والأمثلة الدالة على ذلك عديدة جداً ليس هذا مكان سردها ، ونسكتفي في هذا المقام باقتباس مثالين أو ثلاثة من بين الأعمال الخالدة في هذا الميدان ، ونخص بالذكر منها مجموعة « حياة القديسين » (Acta Sanctorum) التي بدأ جمعها الإخوان البولنديون (Bollandistes) نسبة إلى مؤسسها (J.Bollandus) سنة ١٦٤٣ بمدينة أنتورب في بلجيكا ، وقد بلغ عدد مجلداتها الضخمة للقديسين الذين تقع تذكارات حياتهم من يناير إلى أكتوبر ٦٢ مجلداً ؛ ثم أعمال الأب ميني (Abbe Minge) الجبارة في مجموعة الآباء اللاتين (Patrologia Latina) في ٢٢١ مجلداً والآباء الأغرقي (Patrologia Graeca) في ١٦٥ مجلداً غير المجموعات الأخرى التي لا نستطيع التعمير لذكرها هنا ؛ صف لذلك مجموعة قوانين الحركات الديرية (Codex Regularum Monasticarum) التي بدأ نشرها هولشتين بروما في سنة ١٦٦١ .

ولكن الملحوظ في هذا النشاط الأدبي الفائق . وفيما تلاء من البحوث التي بلغت الألوف المؤلفات في العدد ، أن عناية الكتاب كادت تكون قاصرة على تاريخ الرهبنة

المسيحية في أوروبا ، دون التعرض إلا بقدر نافع إلى ذلك الفصل الأول الرائع عن تاريخ الرهبة المصرية في القرون الخمسة المسيحية الأولى ، بالرغم من أن العالم يدين لمصر بوضع تلك الأسس العتيقة التي بنى عليها واقتبس من قبسها أولئك الآباء الذين يرجع لهم الفضل الأكبر في توجيه المدينة وبناء الحضارة المسيحية في العصور الوسطى . ظل إذن موضوع الرهبة والديرية المصرية طوال القرون الخالية مجهولاً أو كاد إلى أن تنبه لقدره بعض العلماء والمؤرخين والمستشرقين في الخمسين سنة الماضية على وجه التقريب ، فأخذوا في التنقيب عن أصوله ووثائقه المتعددة فيما وصل إلينا من ذلك التراث باللغات القبطية والعربية واللاتينية واليونانية ، وما أن تيدت لهم قيمتها حتى سارعوا إلى نشرها نشرأً علياً دقيقاً مصحوباً في أغلب الأحيان بترجمتها إلى إحدى اللغات الحية ، ومن هؤلاء أميلينو (Amélineau) قديماً ولوفور (Lefort) حديثاً ومن بينهما من الكتاب في مختلف الدول أمثال لادوز (Ladeuze) وجروترماخر (Grutzmacher) والس (Wallis-Budge) وأيفتس (Evetts) وكاتبرت بطلر (Cuthbert-Butler) وإيفلين وايت (Evelyn White) وماكين (Mackean) وغيرهم كثير .

بدأت الأنظار تتجه على هذا الوجه إلى دراسة أصول الرهبة والديرية المصرية دراسة علمية لأسباب كثيرة ، أولها باعتبارها فصلاً من فصول التاريخ المسيحي العام ، وثانيها لأن أنظمة المصريين الديرية القديمة هي الأصل والأساس الثابت للمكين الذي ابنتى عليه قادة الأفكار والجماعات الديرية في أوروبا أنظمتهم المألوفة إلى يومنا هذا ، وثالثها هو إحياء تلك الناحية الغامضة من تاريخنا القومي نحن معشر المصريين . وفي هذه المناسبة نجد أنه من واجبتنا أن نستلفت أنظار المواطنين — المسيحي منهم وغير المسيحي على السواء — إلى أن دراسة تاريخ آباء الكنيسة المصرية لا يجوز بأي حال من الأحوال أن تعتبر مسألة طائفية بحثة ، بل هي دراسة قومية بكل معاني القومية في هذا العصر الذي عكف فيه الباحثون المصريون على إحياء تراثنا القومي في مختلف عصوره منذ أن بزغت شمس الحضارة المصرية على هذا الوادي ، وظلت تتسير السبيل إلى العالم المتحضر في الشرق والغرب قروناً عديدة ، ومن الحقائق المفروغ منها أن تعاليم الآباء المصريين في هذا الدور من أدوار تاريخنا القومي تعتبر من أكبر المفاخر التي جادت بها القرائح المصرية على العالم المتمدن .

ولسكننا بالرغم من تلك الجهود المتصلة في درس تاريخ الرهبنة والديرية المصرية،
 لازلنا على عتبة البحث في هذا الميدان الذي تنجلي لنا يوما بعد يوم سعة أطرافه، وعمق
 غوره، وتشعب أصوله ومنابعه، وأننا مدركون تمام الإدراك تلك الحاجة الملحة إلى
 تضافر جهود المجتهدين لوضع تلك الدراسات الديرية المصرية في الأطار اللائق بها،
 فياخذ البعض في مواصلة نشر الأصول، بينما يعكف البعض الآخر على كتابة حياة
 الآباء أمثال أنطونيوس وباخوميوس ومكار يوس وشنودة وغيرهم، وبأخذ الآخرون
 بعنان درس الأنظمة والقوانين الديرية وحكومة الكنيسة المصرية في عصرها الذهبي،
 تلك الحكومة التي ولد في طبائتها أول مشروع قومي لاستقلال هذا الوطن منذ أن
 نزلت به النوازل الكاسحة المتتالية في غزوة قهزين لمصر سنة ٥٢٥ ق م .

ونحن إذ تصدينا وتصدى للمحاضرة والكتابة بقدر متواضع في هذه الموضوعات،
 شئنا إذ دعونا وندعو إلى المشاركة في بعث هذه الدراسات بقدر أقل تواضعا مما وفقنا
 إليه، إنما نشعر في إيمان وصدق بكل تلك العوامل العلية والوطنية التي تدفعنا إلى القيام
 بمهمة مستثيرة لإحياء هذا التراث المجيد : تراث العلم، وتراث الفكر والحضارة المصرية
 إنما التاريخ ذكرى، وإن الذكرى تنفع المؤمنين .

° ° °

٢ - أصول الرهبنة المصرية

اتفق عامة الكتاب في تاريخ الرهبنة على أن أصول النظام الرهباني المسيحي
 ظهرت لأول مرة في تاريخ مصر المسيحية خلال القرون الأولى من انشطار هذه
 الديانة في العالم المتمدين، كما أنهم اتفقوا على أن مؤسس الرهبنة هو القديس انطونيوس
 في القرن الثالث المسيحي في صعيد مصر الأوسط .

ومع ذبوع تلك النظرية بين جمهور المؤلفين وأخذهم بها، لا نرى مندوحة من
 التحفظ ببعض الشيء في معالجة هذا الرأي، لأن استعراض محتويات الكتب القديمة
 في حياة الرهبان في مصر المسيحية تدل دلالة واضحة على أن بذور التعاليم الرهبانية
 غرست على ضفاف وادي النيل منذ ظهور الديانة الجديدة بين المصريين، وانتشار
 المسيحية في مصر وانتظام كنيستها على أسس ثابتة الدعائم كان أقدم مما تصور مؤرخو
 المدرسة القديمة، فقد ظهر من الكشوف البردية القبطية الحديثة وغيرها أن الناس

أخذوا بقواعد هذه الديانة زرافات في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الميلادي ، ولا غرابة في تهافتهم على اعتناق تلك الديانة واتباع بعضهم النظم الرهبانية في هذا العصر السحيق ، إذ كانت أذهانهم وأفكارهم وما ورثوه من التقاليد والآراء حتى في العصر الوثني المتأخر أساساً لتفهم معنى الديانة الجديدة واستساغة تعاليمها والاقبال عليها بشكل لم يتوفر لسكان الاقطار الأخرى من المسكونة .

لازبد التعرض لتفاصيل هذا الموضوع الواسع لأنها خارجة عن نطاق هذه الرسالة، ولذا فإنا نكتفي فيها بالإشارة إلى بعض الحقائق الأصلية في الديانة المسيحية وما كان يوازيها فيما وصل اليه العقل المصري القديم في نضاله الطويل للوصول إلى قواعد الديانة المصرية في أدوارها المتأخرة. ففكرة البعث وخلود الروح والثواب والعقاب في العالم الآخر كانت من أسس الديانتين ، كما أن كثيراً من الأفكار التي انطوت عليها الديانة الجديدة لم تكن غريبة على عقول المصريين ، فالثالوث المقدس في المسيحية يقابله الثالوث المصري القديم من أوزيريس وإيزيس وحوريس كما كان هنالك ثوابت أخرى محلية كثيرة ، وفكرة ولادة الإله من عذراء بكر يقابلها كذلك فكرة ولادة الإله آيس من عجلة بكر تحمل فيها روح الإله بتاح، والهاد بالمام المقدس معروف في الديانتين والصليب الذي هو رمز الحياة الروحية في المسيحية كان رمز الخلود عند المصريين القدماء ، إذ نرى آلهتهم على الدوام وفي يدهم ذلك الصليب المعقوف الرأس وهو علامة عنخ عندهم. ثم إن الرهبان أيضاً سبقت المسيحية بينهم في العصور القديمة . فلا غرابة إذن في إقبال المصريين على المسيحية وكذلك الرهبانية دون جهد كبير .

وبالرغم من قلة الوثائق والأصول عن العصر المسيحي العتيق إذا قيس بما كتب في ذلك خلال القرنين الرابع والخامس ، نجد بعض الأمثلة لوجود التعاليم الرهبانية في القرن الثاني ، ونذكر من بينها فيما يلي مثالين شهيرين .

الأول أنه في عهد الإمبراطور انطونيوس بيوس (١٣٨ - ١٦١ م) نسمع عن شخص يدعى فورتونيوس يرحل إلى برية تتربا (وادي النظرون) وفي صحبته سبعون مسيحياً ليعيشوا عيش الرهبان ، زاهدين في الحياة الدنيا وراغبين في التقشف والعزلة ، كما يظهر ذلك في « حياة القديسين » (Acta Sanctorum) تحت تاريخ ١٤ أبريل ؛ ويعلق العلامة والس بدج على ذلك بأن تلك الحملة الرهبانية المنظمة لم تكن بطبيعة الحال إلا واحدة من حملات متعددة كانت تحدث تباعاً دون أن تسجلها الكتب

المعاصرة ، وأغلب الظن أن ذلك راجع لحدوثها في الحفاء بغير ضوضاء أو إعلان لأن الديانة الجديدة وأساسها إنكار الذات وعدم المباهاة بأمثال هذه الضروب من العبادة والتعشق كانت محض الزهاد والمعتزلين أو الرهبان على الاحتفاظ بأعمالهم سرراً مكشوراً لا يعمله إلا فاحص القلوب .

والمثل الثاني أصدق دليل على هذا التعليل ، ويظهر جلياً في حياة الأنبا بولا الذي هرب من الوادي في الصعيد الأوسط وتوغل في الصحراء الشرقية إلى أن أتى عصاه في إحدى كهوف الجبال المطلة على البحر الأحمر وهو في سن مبكرة، ومكث بها إلى أن بلغ من العمر عتياً ، إذ يقال إنه مات في العام الثالث عشر بعد المائة من حياته ، ولولا أن عثر عليه القديس أنطونيوس مصادفة في أعماق الصحراء لظل أمره مجهولاً ، وبمكنتنا الجرم بأن الأمثلة المجهولة من هؤلاء المعتزلة المعاصرين أكثر بمراحل من المعروفة . وحياة هذا القديس تدعونا إلى التريث عند هذه النقطة لفحصها في الإمامة ربعة تلتقي ضوءاً على نظام هؤلاء المعتزلة من أقطاب الرهبانية المسيحية . ولد الأنبا بولا حوالي سنة ١٥٠ م من أبوين موسرين ، وتيم وهو في السادسة عشرة ، فتولى الوصاية عليه زوج أخته الذي كان يتحين الفرص للتكبل به . وقد تشفق بشقافة عصره المزروجة ، تلك الثقافة الأخرى والمصرية على السواء ، ودرس أصول الدين المسيحي الذي تعلق به ، ولما لاحظ أن زوج أخته قد صمم على تسليمه لأيدي الولاة في أثناء إحدى موجات الاضطهاد التي كانت تجتاح المسيحيين في العصر الروماني ، قرر بولا أن يهجر العالم ويتوجه إلى الصحراء حيث ينزل الخلق إلى عبادة الله ومزاولة حياة التقشف الرهباني ، وأخيراً وصل في تجواله إلى المنطقة التي بنى فيها الدير الذي حمل اسمه فيما بعد إلى اليوم ، ويقال إن القديس أنطونيوس وجده هنالك وتحدث إليه قبيل وفاته التي وقعت كما يخبرنا المؤرخ بلاديوس في: أيام ديسيوس وفاليريانوس ، وكلاهما من أباطرة الرومان ، الأول حكم من سنة ٢٤٩ إلى سنة ٢٥٣ والثاني من ٢٥٣ إلى ٢٧٠ م ، أي أنه مات ما بين سنتي ٢٤٩ و ٢٧٠ م . وأغلب الظن أن أنطونيوس الذي ولد حوالي منتصف القرن الثالث كان شاباً حديث العهد بالحياة الرهبانية وقتئذ على نقيص ماجاه في الرواية المألوفة من أنه كان يبلغ من العمر تسعين عاماً عندما تلاقى مع الأنبا بولا ، وإذا سلمنا بأن هذا الأخير عاش حقيقة ١١٣ عاماً حسب رواية بلاديوس فلا بد أن يكون ميلاده على وجه التقريب في منتصف القرن الثاني . وفي كتاب البستان

من قلم بلاديوس المذكور وصف طريف للكهف الذي كان يقيم فيه بولا ، ونظامه المعاشي ، وأسلوبه في العبادة ، وشخصيته ، وكيف قضى نجه في سلام . فالكهف الذي اهتدى إليه كان واسعاً من الداخل ذا فوهة صغيرة يغلقتها بحجر كبير ، ويمتاز بنظامه الفائق وانبساط أرضه ونعومة التراب المنثور عليه ، وبجوار الكهف بعض النخيل الذي كان يقتات بشمره ، ويرتدي برداء من الليف الذي يجمعه منه ، وقد وجد بولا في هذا المكان ذاك السلام الشامل والحياة الكاملة التي كان ينشدها ، وعاش قرابة تسعين سنة في هذه البقعة الموحشة ، ولكن هذه الوحشة لم تؤثر على حلاوة شخصيته كما يتضح من رواية لقائه مع القديس انطونيوس ، وكان يقضى أيامه ولياليه في التعبد والصلاة والتأمل الهادئ ، فلما رقد إلى الأبد في أثناء الصلاة وأنطونيوس على مقربة منه احتار في أمر دفن جثته لأن أرض الجبل الذي كان يعيش عليه صخرية ، وهناريوي بلاديوس قصة الأسدين الذين ظهرا وحفرا الحفرة التي أنزل فيها جسد القديس بعد أن استولى انطونيوس على رداؤه اللبني وحمله معه .

قصارى القول إن أصول الرهبنة في مصر بعيدة الغور ، وتاريخها أقدم من تاريخ القديس انطونيوس ، ولكنها في بدايتها لم تكن من نوع الحركات الاجتماعية العامة المنظمة ، وإنما أخذت وضعها الثابت المعروف ، وصيغتها العالمية الواسعة النطاق ، على يدى الأبا انطونيوس الذي تطورت في عهده ذلك التطور التاريخي حتى أصبح المؤرخون ينعتون هذا الدور من أدوار تاريخها باسم « الرهبنة الأنطونية » نسبة إليه .

٣ - الرهبنة الأنطونية

يمكن القول بأن هذا هو الدور الحق من أدوار تاريخ الرهبنة المصرية بشكلها المألوف ، ذلك لأن ما سبقه في الواقع يجب اعتباره بمثابة مقدمات مرتجلة مهدت لهذا النظام الجديد ، وإن كانت هذه الأدوار الأولى متداخلة بعضها في بعض ، لا نستطيع رسم حدودها المضبوطة في نقط ثابتة معينة ، دأب الأنظمة والحركات التي تنمو تنمو طبيعياً تبعاً لظروف الأحوال . ولب الرهبنة الأنطونية في عهدها الأول كان ينطوي على العزلة الفردية التامة ، وإغراق الراهب في ضروب الزهد ، ومبالاته في التقشف والصوم وتعذيب الجسد لخلاص الروح . وربما كانت حياة القديس انطونيوس ذاتها .

من أبلغ المثل لهذا النوع من الرهبنة ، وقد كتب عنها في تفصيل القديس أنطونيوس بطريك الاسكندرية وأسقفها الذي تزاور معه وعلم الشيء الكثير عنه .

ولد الأنبا أنطونيوس حوالي منتصف القرن الثالث الميلادي في مدينة كوما أو هرقلوبوليس بمصر الوسطى من أبوين مسيحيين ، وكان والده مشغولاً بالفلاحة ومن ذوى اليسار والجاه يملك مزرعة واقعة في وادى النهر الخصيب تبلغ مساحتها ثلاثمائة فدان . وعاش أنطونيوس في بيت أبويه عيشاً متوقفاً بعض الترف ، وتعلم منهما قواعد الدين المسيحي ، وإن كان من المحقق أنه لم يأخذ بأى قسط من التعليم الدينى العالم ، إذ أن المعروف عنه أنه ظل أمياً لا يعرف القراءة أو الكتابة لآخر أيامه ، ولم يتصل بالثقافة اليونانية أيما إتصال ، فظل مصرياً صمياً في طبعه وفي تفكيره . وحوالى سنة ٢٧٠ م بينما كان فى العشرين من عمره ، توفى أبوه تاركاً له مع تلك الثروة العريضة أختاً صغيرة يقوم على تربيته ، والعناية بشئونها . غير أن أنطونيوس الذى استهوته قواعد العقيدة المسيحية كان كثير التردد على كنائسها ، وبدأت تظهر عليه أعراض الاستخفاف بالحياة الدنيا ، حتى أنه فى ذات يوم عندما كان فى الكنيسة سمع الكاهن يعظ الشعب مردداً قول الكتاب المقدس بأن المرء إذا أراد السكال وجب عليه أن يبيع ما يملك وأن يوزعه على المعوزين ليكسب بذلك ملكوت السموات . فاعتبر أنطونيوس هذا الكلام موجهاً إليه من الله ، وسارع إلى إجابة الدعوة ببيع ممتلكاته إلا ما يكتفى لسد رمق أخته ، ووزع قيمتها على المساكين والمستورين . وما هى إلا عشية أو صباحها حتى قرر بيع البقية الباقية أيضاً لتوزعها على الفقراء . عندما سمع الكاهن مرة أخرى يردد الآية القائلة ، لا تهم بالغد ، بل اجعل الغد يهتم بنفسه ، يكتفى اليوم شره . ثم عهد بشقيقته إلى جماعة من العذارى اللواتى دأبن على الاجتماع بمحجر الكنيسة للتعبد وتدريب النفس على القداسة ، ورحل هو إلى سفوح الجبال الشرقية المتاخمة لحافة الوادى بعد أن عبر النهر ، وهنا لك بنى لنفسه صومعة أنفرد فيها ، وكان أحياناً يخرج منها ليبحث عن سبقوه إلى العزلة والتقصيف لكي يتلقى عليهم دروسه الأولى فى الرهبانية ، وهكذا أخذت منه هذه الحياة الجديدة كل مأخذ ، فجعل يتوغل فى الصحراء شيئاً فشيئاً للابتعاد ما أمكن عن سكان الوادى ، وظل يواصل سعيه حتى استقر نهائياً فى الجبال الواقعة قرب ساحل البحر الأحمر ، وعاش بقية أيامه فى كهف على قمة جبل قرابة الدير الذى يحمل اسمه إلى اليوم ، ومات حوالى سنة ٣٥٥ م وعمره آنشد

١٠٥ من السنين بعد أن طلب إلى تلاميذه أن لا يحنطوا جسده على طريقة أسلافه من المصريين وأن يدفنوه في مغارته .

ولم ينزل القديس انطونيوس في مدة الخمسة والثمانين عاما التي قضاها في تلك البقعة إلى الوادي على ما نعلم إلا مرتين عند ما شعر بأن اخوانه في الدين هنا لك بحاجة إلى هدايته ومساهمته في تشجيعهم عندما حاقت بهم المحن الكبرى التي منيت بها المسيحية في أوائل عهدها بمصر . أما المحنة الأولى فهي ذلك الاضطهاد الكاسح الذي أنزله الإمبراطور الروماني مكسيمينوس بمسيحي مصر سنة ٣١١ م ، فلم يجد القديس بدأمن الخروج عن عزلته ليشد أزر المؤمنين ويقوئهم في أمانتهم لما بلغ الاضطهاد أوجحه ؛ فكان يزور السجون ، وينقل في المدائن معرضا حيانه لأشد المخاطر في شجاعة ورباطة جأش . والمحنة الثانية جاءت عند استفحال هرطقة اريوس الكاهن السكندري في أثناء حكم الإمبراطور قسطنطين الكبير ، فهبط انطونيوس من الصحراء الشرقية إلى المدن المصرية سنة ٣٣٨ لكي يساعد القديس اثناسيوس في كفاحه الدامي ضد الهرطقة من أتباع اريوس ، ولا شك أن شخصيته كانت من أكبر الدعامات في رد المصريين إلى حظيرة الإيمان المسيحي الحق وكبت هذه الضلالة أو البدعة الجديدة .

أما نظام حياة القديس في عزلته فكان بسيطا بالرغم من إغراقه في التقشف ، يتناول القليل من الخبز العفن المجفف وبعض الملح ولا يشرب غير الماء ، وكان إفطاره في معادة مرة واحدة عند غروب الشمس ، وأحيانا كان يمضي ثلاثة أيام أو أربعة في صيام كامل عن الطعام والشراب ، وقيل أنه كان في بعض الاوقات يمد فترة الصيام التام حتى تبلغ عدة أسابيع . وكان يقضي ليلاته ساهراً مصليا ، فإذا نام كان نومه على حصيرة من سعف النخيل . ولم يغتسل في حياته الرهبانية أبداً ، كما أنه لم يدهن جسده بالزيت . وكان رداؤه عبارة عن فروة غير مدبوغة يلبسها مقلوبة لكي يقع شعرها على جسده إمعانا في تعذيب نفسه بخشوتها . ولم يكن يتدثر بغطاء في نومه إلا بعد أن أسن وأخذ منه الضعف مأخذه فكان يضع فوقه إحدى الفراء .

أما شخصيته فقد أطلال في وصفها القديس اثناسيوس . كان حلياً لا يفضب ، بلغ من الحكمة وعمق التفكير مع بساطته مبلغاً رائعاً ، وأسلوبه في الكلام كان واضحاً وقوياً ومقنعاً بالرغم من أنه كان أمياً ولم يتكلم سوى اللغة المصرية ولم يدرس علوم الإغريق وفلسفتهم ، وكان ذهنه حاضراً وقريحته وقادة كما يظهر من جدله مع من زاره في عزلته

من فلاسفة اليونان وحكام الوثنية ، وظل إيمانه بعقيدته ثابتاً كالصخر ، كما بقيت نفسه هادئة تشع السلام على من حولها ، وكان شقيقاً بالناس ، رحياً بهم ، قادراً على معالجة ما يصادفهم من الأزمات الروحية بدون أن يقسو عليهم ، أو يبعث اليأس في نفوسهم ، واسع الإدراك ، محبوباً من الجميع على السواء .

لاغرو إذن أن تجذب مثل تلك الشخصية الفذة الحلوة أعداداً كبيرة من الرهبان الذين تتلذذوا عليه ، وأصبح هو في نظرهم المثل الأعلى للحياة الكاملة ، يقتدون به ، وينسجون على منواله ، حتى أن الصحراء أصبحت تفتح بمجامعهم في جنباتها الشرقية . ولكن النظام الأنطوني ظل في أساسه نظاماً فردياً ، أساسه العزلة والتقشف والصوم ، لأن تعذيب الجسد والحرمان كان في نظرهم الوسيلة المؤدية لنجاة النفس وخلص الروح وكان الأخوة من أتباع انطونيوس يتنافسون في هذا الميدان ، إلى حدود تفوق حد الحسيان .

غير أن نظام العزلة النامة الذي زاوله هؤلاء الجبابرة من المتوحدين كان مصيره الطبيعي أن يتطور تطوراً بطيئاً إلى نوع من الرهينة الاجتماعية المخففة لمجاهة الصعاب المادية والروحية التي كانوا يتعرضون لها في تلك القفار ، وأخذت بوادر هذا التطور في الظهور رويداً رويداً حتى في أثناء حياة القديس انطونيوس ذاته .

٤ - الرهينة الاجتماعية

تعتبر الرهينة الاجتماعية (Collective Eremiticism) الدور الثاني في تطور الأنظمة الرهبانية المسيحية المصرية ، وهي المرحلة المتوسطة بين التعاليم الأنطونية الأولى وقوانين الديرة الباخومية . ولا شك أن هذا التطور كان أمراً إنسانياً طبيعياً في الظروف القاسية التي كانت تحيط بالمتوحدين الذين عمدوا إلى انتزاع أنفسهم انتزاعاً كاملاً من كل الصلات البشرية ، ولم يحسبوا للخوف والأخطار التي كانت تهددهم أي حساب . فمن الناحية المادية وجدوا أنهم يعيشون في صحراء جرداء ، تنذر فيها يتنايسع الماء ، وتكاد تكون خلواً من موارد الغذاء ، ولا بد لهم من الارتحال أميالاً عدة لكي يحصلوا على ما يسده رمقهم من المأكول والمشرب مهما كان قليلاً ، فإذا نزلت بأحدهم نازلة المرض وعجز عن التنقل ، كان مصيره الموت المحقق ، ثم إن الصحراء إلى جانب

ذلك كانت تجوس جنباتها الحيوانات الضارية ، ويجوب أكنافها قطاع الطرق من أهل البادية وانصاف المتوحشين ، وكلاهما لا تعرف الرحمة لقلبه سيديلا . أما من الناحية الروحية فقد كان المتوحدون ولا سيما البادئون منهم في سلم الرهينة يتعرضون لأزمات نفسية عنيفة تودى بكيانهم المعنوي ، ولدينا أمثلة — وإن كانت قليلة — من الرهبان الذين أصابهم الجنون ، فكفروا بكل شيء وعادوا إلى المدينة يعيشون فيها عيشة غير طبيعية بعد أن قضوا أعواماً في جوف الصحراء على الكفاف وقتل الغرائز الإنسانية والتعسف والتأمل والصراع مع أنفسهم ، ونذكر من بين هؤلاء فالنس (Valens) الفلستيني وبطليموس المصري .

كان إذن من الطبيعي لهؤلاء المتوحدين أن يفكروا في التخفيف من عزاتهم بمض الشيء تدفعهم لذلك الغريزة البشرية لحب البقاء ، فأخذوا في تركيز صفوفهم في مناطق معينة حول الشخصيات الكبرى من الآباء الروحانيين ، ليتلذذوا على أب لهم في الروح اشتهر بالقداسة والعلم بأصول الديانة والنقمة في السكتب المقدسة ، وليسترشدوا بتعليمه ويتشبهوا به في قدسيته ، وإن كان كل منهم لازال يحافظ على حياة التوحد التي وهب نفسه لها في مغارته أو قلايته دون أن يتعرض له جاره ، أو يقطع عليه أحد زملائه حبل التفكير والتأمل والعبادة . ولكن مغاورهم وقلاليهم كانت قريبة بعض القرب من بعضها ، تقوم حوالى قلاية أبيهم الروحي . وهذه القربى أيضا يتغلبون على الصعاب المادية التي كانت تواجههم ، فإذا ما نزلت بأحدهم نازلة المرض أو كارثة غير منظورة ، كان له من جيرانه من الإخوة عرن في الشدائد والنوازل . وهم في نفس الوقت يجتمعون إلى أبيهم الروحي بين آونة وأخرى ليشهد أزرهم ، ويحسن توجيههم ، ويساعدهم في التغلب على أزماتهم النفسية .

وهنا لك عامل آخر دفعهم إلى هذه الحياة الاجتماعية المخففة ، هو الاضطهادات الدينية التي كانت الحكومة الامبراطورية تثيرها ضد المسيحيين للقضاء عليهم . فنجد أن المتوحدين بعد اضطهادات ديسيوس ودقلديانوس على وجه أخص يجمعون صفوفهم عند الزوم للدفاع عن أنفسهم ، ومهما يكن من أمر هؤلاء الرهبان المسالمين ، فإن كثرة أعدادهم — وقد بلغت الألوف المؤلفة — وهم مسلحون بمصيهم الثقيلة إنما كانوا يكونون جيشا لا يستهان به ، ولا تستطيع أي حكومة ان لا تقيم لحظهم على عملها اي وزن

وأهم المناطق التي تركزت فيها جماعات الرهبان بصحراوات مصر الشرقية والغربية
نذكرها فيما يلي :

(١) منطقة بسبير (Pispir) في الصعيد الأوسط ، ومن الصعب تحديد مكانها بالضبط ، إلا أنه يقال إنها كانت واقعة في الجبال التي تبعد بعض أميال عن الحافة الشرقية للوادي على مقربة من مدينة بني سويف . وهي المنطقة التي بدأ فيها القديس أنطونيوس حياته الرهبانية الأولى ، ثم انتقل منها إلى الجبال النائية المطلّة على البحر الأحمر ، وتبعه إلى بسبير فما وراءها عدد هائل من الرهبان الذين اجتذبهم شخصيته فسعوا إلى التلذذ عليه وعاشوا في رعايته الروحية ، وقد ازداد عددهم إبان حياته وفي شيخوخته حتى بلغوا الألوف ، وهناك وصف أدبي رائع للصحراء التي ازهرت بهم في كتاب « تجارب القديس أنطونيوس » (Les Tentations de St. Antoine) من قلم الكاتب العظيم جوستاف فلوبير (Gustave Flaubert) ، وهذا الكتاب وإن يكن من الآثار الأدبية التي قد يصطدم فيها الخيال ببعض الحقائق التاريخية ، إلا أنه يصور لنا الحياة العامة للزهاد والفساك في ذلك العصر وفي تلك المنطقة في صور من أجل وأروع ما أنتجته أقلام المؤلفين في هذا النوع من القصص التاريخية .

(٢) منطقة « جبل نتريا » ، أو وادي النظرون وكانت تعرف أيضا باسم برية شيهات التي هب إليها المتوحدون منذ أقدم العصور المسيحية في القرنين الثاني والثالث ، وتقع الآن إلى الغرب من منتصف الطريق الصحراوي الحديث بين مصر والاسكندرية تقريبا حيث يوجد على مقربة منها إلى اليوم دير البراءوس الشهير من مؤسسات القرنين الرابع والخامس ، ويروي الكاتب بلاديوس الذي زار هذه المنطقة حوالي سنة ٣٩١ م أنه وجد هناك خمسة آلاف راهب يعيشون مع بعضهم مئتي وثلاثا وفي جماعات صغيرة ، غير ستائة ناسك يعيشون فرادى داخل الصحراء .

وكانت هذه المنطقة تنقسم إلى ثلاثة مراكر رهبانية : أولها جبل نتريا (Nitria) ، وثانيها مستعمرة القلال (Cellia) ، وثالثها الاسقيط (Scetis) على التوالي من الشمال إلى الجنوب منحرفة صوب الشرق قليلا . ويعزى الفضل في تأسيس الأولى إلى آمون الذي نزع إلى تلك المنطقة حوالي عام ٣٢٥ م ، بعد أن عاش ثمانية عشر سنة في منزل الزوجية بالاسكندرية ، وقصة زواجه قسرا وإقناعه زوجه أن تحببها معه حياة التبتل

والعبادة سرا طوال هذه الفترة مشهورة . أما المركز الثاني فقد نشأ حول أبي مقار الكبير الذى ولد بالاسكندرية فى فجر القرن الرابع ، ثم مال إلى الذسك فأخذ يتوغل فى صحراء مريوط (Mareotis) إلى أن استقر فى جمة القلاى وعرفت بهذا الاسم لأن أتباعه تكاثروا حواليه ونبى كل منهم لنفسه قلابته فى جواره ليتنلذوا عليه ، وقد اشتهر أبو مقار بسبقه المضطرد لغيره من الذسك فى ضروب النقشف وتعذيب النفس وإنكار الذات حتى أصبح لا يقناول من الطعام أكثر من ثلاث أو أربع أوقيات من الخبز الجاف ومن الماء مالا يربو عن حاجته فى ابتلاع هذا الكفاف ، وكان يعرض نفسه طوال يومه لشمس الصحراء المحرقة ، ويمنع نفسه من النوم يقضى طوال ليله فى العبادة ، فلما اكتظت القلاى بالرهبان من حواليه ، هجرها إلى المركز الثالث وهو الاسقيط وكان أشد وعورة من سابقه ، وتبعه إلى هنالك عدد محدود من تلاميذه المقرين له والمعجبين به .

وكانت الحياة فى تلك المنطقة كما يصفها الرحالة والحجاج حياة اجتماعية استقلالية تذكرنا بمعض الشىء بالمؤسسات الباخومية التى سنتكلم عنها فيما بعد ، فقد كان بين الأخوة عدد من الخبازين الذين يمدون الخبز للرهبان ، وعدد من النساكين الذين يفسجون الثيل للبوهم وكذا الزارعون وصناع النيد من الكرم الذى يثبتونه . كما كان بعض التجار يرتادون هذه المنطقة لشراء ما يزيد على حاجة الرهبان ، وكان بينهم الأطباء للعناية بالمرضى ، أما حياتهم الدينية فكانت موضع الإعجاب ، إذ أن بلاد يوس الذى كان يسمع ترتيبهم للمزامير إذا ما أرخى الليل سدوله قد سما به الخيال إلى أن تصور أنه انتقل من هذا العالم إلى جنة عدن ، وقد بنى الأخوة كنيسة عظمى فى وسط المنطقة يجتمعون بها للصلاة معا وتتناول العشاء الربانى فى يومى السبت والأحد من الأسبوع ، وفى ساحة هذه الكنيسة ثلاث من شجرات النخل عاقى بكل منها سوط ، الأول لعقاب الخطاة ، والثانى لضرب اللصوص ، والثالث لجلد الأعراب الذين يحيدون عن قواعد الجماعة .

٣) منطقة البهنسا وهى التى كانت تعرف فى العصر الرومانى باسم أو كبير نكس (Oxyrhynchus) فى الصعيد الأرسط على مسافة ١٢٥ ميلا جنوب القاهرة كانت من المستعمرات أو المدائن الرهبانية الكبرى ولا تزال إلى اليوم مصدراً من المصادر الرئيسية للأثار القبطية الرومانية ، وجاء وصفها فى تاريخ الرهبان المنسوب إلى هيرونيوموس (Hieronymus) أنها كانت تعج بجماعات الرهبان ، فى داخلها خمسة آلاف ، وفى خارجها خمسة أخرى ، يستمع الزائر إلى أصوات العبادة والتراتيل الدينية

بها وهي تملأ عنان السماء أناه الليل وأطراف النهار، وأعجب من هذا أنه كان بها أسقف
في رعاية عشرين ألف راهبة من العذارى ، وهذا التقدير مع ما فيه من المبالغة الواضحة
لأنما يزيدنا بفكرة عامة عما بلغت الحركة الرهبانية من التوسع في القرون الأربعة الأولى
عن تاريخ المسيحية في بلاد مصر .

٤) منطقة ليكوس (Lycus) بالقرب من أسيوط وقد أمها خلق عظيم اجتذبتهم
إليها العجائب التي كان يصنعها الناسك يوحنا التجار المولود سنة ٣٠٤ م والذي نزع
للزهد في جبل ليكوس سنة ٣٣٠ حيث أقام إلى أن مات سنة ٣٩٤ . وقد اشتهر بين
معاصريه بنعمة التنبؤ بالغيب وصنع المعجزات حتى ذاع صيته في أقصى المسكونة ،
وسمى إلى الأخذ بمشورته أناس من جميع الطبقات ومن بينهم الامبراطور ثيودوسيوس
المتوفى سنة ٣٩٥ . ومن ضروب الزهد التي كان يمارسها القديس يوحنا أن عاهد نفسه
ألا يتناول من الطعام ما كان مطبوخا على النار بما في ذلك الخبز ، فكان زاده قاعرا
على الأعشاب المجففة .

٥) منطقة انتينوى (Antinoë) التي تقع مكانها قرية الشيخ عباده على ضفة النيل
الشرقية ، وهي التي زارها الرحالة بلاديوس ما بين سنة ٤٠٦ و سنة ٤١٢ ، وقضى بها
أربعة أعوام كاملة يتنقل في أرجائها نظرا لكثرة من سكنها من الناسك ، ففي حدود
المدينة وجد اثني عشر ديرا عسرة بالراهبات ، وخارجها ألف ومائتي راهب دائبين
في الأعمال اليدوية لسد حاجاتهم المعيشية ، وعائشين عيشة الزهد والفسك والتبتل
والقناعة . ويذكر هيرونيوموس أنه كان يأوى صحراها المقفرة رجل قديس اسمه إيليا
بلغ من العمر مائة وعشر سنة قضى هنالك منها سبعين عاما متوحدا يقنت على ثلاثة
دراهم من الخبز وثلاث زيتونات يوميا ، وقيل إنه في صباه كان يكتب بأكله واحدة
كل أسبوع .

وبلاحظ من تلاوة تاريخ النساك والمتوحدين أنه وإن لم تكن هنالك قواعد
مكتوبة يسرون عليها في حياتهم الرهبانية ، أو نظام موضوع يرسم لهم خطة معينة
يتبعونها كما سترى في قوانين باخوميوس ، إلا أنه كانت هنالك تقاليد وعادات مرعية
الفوها أو استوحوها من آباءهم الروحيين ، وجعلوها أساسا لاجتهادهم في ميدان الفسك
وفي مقدمة هذه العادات أو التقاليد الهروب من وجه الناس إلى التوحد والتبتل وحياة
الفقر المطلق والطاعة وتدريب النفس على الاحتمال والصبر والمحبة والصدق في المعاملة

وكان الناسك يتبارون في الصيام ، وعلى كل حال كان المفروض أن لا يتناول الراهب
 غير الخبز المجفف وبعض الملح مرة كل يوم ، وفي بعض الأحيان كان البعض يسمحون
 لأنفسهم بأكل الخضراوات المسلوقة والفاكهة والعسل البرى متى وجد ، أما اللحوم
 فكانت محرمة كل التحريم ، وكان الفئيد غير مرغوب فيه ، واقتصر مشربهم على قدر
 من الماء . أما ملابسهم فكان من فراء المساعز غير مدبوغة ومعلوبة بحيث تقع خشونة
 الشعر على أجسادهم ، ولكنهم أحياناً كانوا يرتدون برداء مصنوع من التيل الخشن .
 وكان نومهم على حصيرة من سعف النخل ، إلا أن الكثيرين كانوا يفضلون الانبطاح
 على الأرض العارية أو على العشب والحشائش كما كان البعض يعرضون أجسامهم للعري
 في شمس الصيف المحرقة وبرد الشتاء الزمهرير . وكان السكوت التام والتزام القلالي أو
 المغاور للصلاة والتأمل من الضرورات المسالمة للناسك ، وإحلال العبادة محل
 النوم أمر مألوف بينهم عموماً ، وقد ذهب القديس ارسانايوس إلى القول بأن نوم
 ساعة واحدة في الليل تكفي الناسك . والصلاة عند المتوحدين اصطحبت عادة بالخرن
 العميق وأحياناً بالبكاء وصرير الأسنان . ويقترن احتقار الناسك لهذا العالم باظهار
 المحبة المطلقة لاهل الانسان والحيوان على السواء . وقد لوحظ على كثير من المتوحدين
 شفقتهم بالحيوان حتى الضاري منه حتى أنست الوحوش لهم ولم تفزع من رؤيتهم .
 ولكن يجب أن نتذكر على الدوام أن هذه القواعد العامة من قبيل الاستنباط الحسب ،
 وأن المتوحدين كانوا يمارسون العبادة كل على طريقته الخاصة وهم يتسابقون في ميدان
 البطولة الروحية وإذلال البدن والحرمان وكبت الفرائز والتقشف والإيمان في الوحدة .
 والمتوحدون عادة لم يكن من قواعدهم العمل اليدوي ، كما كانوا يربأون بأنفسهم عن
 مطالعة الكتب أو اقتنائها خلافاً لما سنبديه في صدد قوانين باخوميوس ، ذلك لأن
 الناسك كان في غنى عن الاسترشاد بالكتب ، وإنما كان الاسترشاد بالله وحده عن
 طريق التأمل والعبادة والصلاة وإعلاء الفكر والروح إلى الأبراج السماوية . وليس
 شغل الناسك هو القراءة أو العمل اليدوي . وكان الناسك عادة قبل الحركة قابلاً في
 عقر مغارته يقضى فيها السنين الطوال دون الخروج منها ، معتمداً على أهل البر في
 إيصال حاجات الجسد من مأكل بسيط إلى بابه . والعجب العجيب هو أن أولئك الزهاد
 كانوا يعيشون أعماراً طويلة تتجاوز القرن في أمثلة لا تعد ولا تحصى .

قد علمنا في هذا الفصل بعضاً من حياة هؤلاء المتوحدين في القلاع والقفار

٥ - قوانين باخوميوس والحياة الديرية

تعتبر الديرية الباخومية ثالث الأدوار الكبرى وغايتها في تطور الحياة الرهبانية في مصر التي اصطالحوا على تسميتها بحياة الشركة. وللمرة الأولى في تاريخ الرهبنة نسمع عن أديرة منظمة ذات قوانين وضعية، ونظم محبوكة، تخضع لها الجماعة كبيرها وصغيرها. وهذا الفصل الجديد في تطور التعاليم الرهبانية من أروع الفصول وأهمها في كل تاريخها السابق واللاحق، سواء في ذلك مصر المسيحية أو أمم الشرق والغرب بلا استثناء. ولكي ندرك كنه هذه التعاليم الغضة، لا بد لنا من دراسة حياة القديس باخوميوس بالقدر الذي تؤهلنا له الأصول والوثائق التاريخية وهي قليلة ومتضاربة، لأن في هذه الدراسة مفتاح ذلك النظام الذي طلع به على العالم.

ولد باخوميوس في بلدة كينوبوسكيون (Kenoboskion) بمنطقة طيبة، ويقال إن مكانها الآن بلدة قصر الصياد الواقعة في مديرية قنا بصعيد مصر الأعلى، وكان ميلاده على وجه التقريب في سنة ٢٩٠م أو على وجه التحقيق ما بين سنتي ٢٨٥، ٢٩٥ من أبوين وثنيين، ومن ذلك نستنتج أن باخوميوس قضى سنينه الأولى في التقاليد والعبادات الوثنية، ولكننا لانعلم تمام العلم كيف تربى باخوميوس في صباه، إذ أن كل ما وصل إلى علمنا بعدئذ هو أنه انخرط في سلك الجندية الرومانية وهو في سن العشرين، واشترك في الحروب التي أثارها الامبراطور مسكيميانوس على قسطنطين سنة ٣١٠، ولكن هذه الحملة كانت قصيرة الأجل لاندحار الأول وقتله في نفس السنة بأمر قسطنطين، وبذلك انصرف باخوميوس إلى الحياة المدنية، ومع أن خدمته الحربية كانت مقنضبة على هذا الوجه، إلا أن تأثيرها في حياته كان بالغاً إلى أقصى حد. وأول آثارها أنها أخرجته من الجو الوثني الذي كان يعيش فيه ببلدته، وأتاحت له فرصة الاختلاط والتعرف بالمسيحيين وعاداتهم ودينهم في مناطق أخرى. وقد حدث أن المكتيبة التي كان يمسكر بين أفرادها ذهبت إلى مدينة لاتوبوليس (Latopolis) وهي إسنا الحديثة، فخرج سكانها إلى الجند يطعمونهم ويقضون حاجاتهم في دعة ودماثة خلق، فتعجب من ذلك باخوميوس وسأل عن هؤلاء الناس الذين اكرمهم كما لو كانوا أهلاً لهم وليس بينهم سابق معرفة، فقيل له إنهم مسيحيون، فما ينصرف عن الجندية الاوهكف على دراسة قواعد هذا الدين الجديد، وانتهى الأمر به إلى اعتناقه المسيحية في سنة ٣١٤

وبذلك وجدت الديانة الجديدة واحداً من أكبر زعمائها . غير ان الحياة العسكرية كان لها اثر آخر في تكوين شخصية باخوميوس ، فتعلم فيها النظام والطاعة والعيشة الاجتماعية والعمل البدني مما نلاحظه من الصفات التي امتازت بها قوانينه الرهبانية فيما بعد . ثم ملكت عليه تلك الديانة كل مشاعره حتى قرر ترك العالم . واعتنق الرهبانية ، وتبع القديس بلامون وتلبذ عليه ، وحاول بلامون بادي ذى بدء أن ينهى باخوميوس عن حياة الفسك والتوحد لأنها حياة قاسية مخوفة بالانعاب والآلام التي تعدو حدود التصور ، ثم وضع له بلامون نظامه مبدئياً أنه لا يتناول من الطعام إلا كسرة واحدة من الخبز الجفاف مع قليل من الملح مرة يومياً في أثناء الصيف ومرة في كل يومين من فصل الشتاء ، وأنه لا يستعمل الزيت ولا يشرب النبيذ ، وأنه يقضى نصف الليل أو الليل بمرته في ترويض المزمار والكتب المقدسة . ثم نصحه أن يفكر طويلاً قبل الأقدام على هذا النوع من العيش لأن كثيرين قبله ظنوا أنهم يستطيعون ممارسته ، ولكنهم ارتدوا ، والردة أمر غير مرغوب فيه لأن من وضع يده على المحراث لا يجب أن ينظر إلى الوراء . لكن باخوميوس طلب من المعلم أن يطلب إلى السيد المسيح أن يهبه الجلد والقوة لكي لا ينوء كامله بهذا العبء الفادح ، وأن يساعده على ممارسة حياة الفسك حتى الموت . عندئذ قبله بلامون تليداً له . وقد كان دور التلذة عنيماً في مجله ، مليئاً بتعذيب الجسد والصيام وسهر الليالي ، وقيل إن بلامون وجده في ليلة من الليالي وقد أخذته سنة من النوم ، فأيقظه وأخرجه من قلايته وكلفه بأن يقضى بقية الليل في نقل أكوام الرمل من جانب من الصحراء إلى جانب آخر ، قائلاً له اجتهد فان العمل والجهد البدني يدفع الشيطان عن إفساد ثمره أتعابك . وكان باخوميوس موضع إعجاب أستاذه الذي رضى في النهاية عما وصل إليه تليذه من السمو ودرجة الاعتماد على النفس ، فطلب إليه أن يذهب ليحيى حياته في وحدة تامة وأن لا يتلقيا بعد الآن إلا دفعة واحدة في السنة الواحدة . ويقال إن الفترة التي قضاهما في رعاية بلامون سبعة أعوام كاملة .

انصرف باخوميوس عندئذ إلى جهة مقفرة في منطقة طابنا (Tabenna) بالقرب من قنا في مواجهة دندره ليواصل فيها حياة التقشف والتوحد ، وكان كفاحه فيها شديداً ، وقيل إنه مرة قضى أربعين ليلة متوالية دون أن يذوق طعم النوم ، عاكفاً على العبادة والصلوات . وأخيراً تقول الأساطير الدينية إنه قد جاءه الوحي من

الروح القدس على يدملاك أنباء بأنه أتم فترة التجربة كاملة ، وأنه لا حاجة له بالبقاء في مكانه ، بل عليه أن يتجول في القفار ليجمع الأخوة المتوحدين ، والفساك الذين يهيمون على وجوههم في الأرض ، وأن يسكنهم معا في دير يقام لهم ، وأن يخضع الجميع لقانون واحد . ثم دفع له الملك بلوح نقشت عليه الوصايا التي يجب على الأخوة أن يسيروا بموجبها وعددها ستة ، والكلام فيها موجه في صيغة الأمر إلى باخوميوس ، نقلها فيما يلي مع قدر قليل من التصرف :

(١) دع الرجل (والمقصود الراهب) يتناول من المأكل والمشرب ما يشاء ، وعلى قدر قوة هؤلاء (الرهبان) ممن يأكلون ويشربون نلزمهم بالعمل ؛ ولا تنههم لاعتناء الأكل ولا عن الصوم ؛ أما الضعفاء والصائمون فتطلبهم بالأعمال الخفيفة .

(٢) وعليك أن تقيم لهم القلاي يسكنونها معا ثلاثة ثلاثة .

(٣) وعليهم جميعا أن يتناولوا الطعام معا في قاعة واحدة .

(٤) وعليهم أن لا يناموا منبطحين على الأرض ، لكن عليك أن تصنع لهم المقاعد ، حتى إذا ما استلقوا فوقها أمكنهم أن يستندوا رؤوسهم عليها .

(٥) وعليهم في أثناء الليل أن يلبسوا جلبابا بغير أكمام ، وأن يشدوا أوساطهم بحزام ، ويجب أن يعطى لكل منهم طاقة لغطاء رأسه . وعليهم أن يتناولوا العشاء الرباني في يوم السبت وفي أول يوم من الأسبوع (يوم الأحد) وطواقمهم فوق رؤوسهم دون أن يكون عليها أغطية أخرى ، وعلى صدر كل طاقة منها صليب مشغول من القرمز .

(٦) وعليك أن تقسم الرهبان إلى أربع وعشرين مرتبة (أو درجة) ، وأن تميز كل مرتبة بحرف من الحروف الأبجدية اليونانية من الألفا إلى الأوميغا (أي من الألف إلى الياء) ، لكل مرتبة منها حرف .

هذه هي الوصايا الستة كما أوردها الأسقف بلاديوس في كتابه وبستان الرهبان ، وقد عقب فيها الكاتب على الفقرة الأخيرة بما يفهم من منطوقه أن كل حرف يرمز به إلى صفة من الصفات تشترك فيها طبائع جماعة الرهبان الذين ينتمون إلى هذا الحرف أو القسم ، فالبسطاء في الروح مثلا يرمز لهم بحرف دايتا ، وصعاب المراس

والمعادنون يرمز لهم « ا ك س ي » ، وهكذا بحيث يستطيع رئيس الدير أن يعرف من هذا الوضع صفة كل راهب وطبيعته دون كبير عناء .

بعدئذ يذكر بلاديوس أن ملاك الله أضاف شفويًا إلى ما جاء في اللوح المكتوب أنه إذا جاء إلى الدير راهب غريب يرتدى بزى مخالف لزمهم ، أن يدخل معهم إلى المائدة . وعلى الرجل الذي يتخفى قبوله راهباً في الدير أن يكلف بالعمل اليدوي ثلاث سنين قبل أن يمنح (زى الرهبان في هذا الدير) وحلقه الرأس (التي تميز هؤلاء الرهبان) أى حلق ذؤابة شعر الرأس في المكان الذي يضعون عليه طواقمهم (Tonsure) . وعلى الرهبان إبان تناولهم الطعام أن يضموا على رموسهم القلائس التي تحجب رموسهم ووجوههم حتى لا يرمقوا بعضهم بعضاً وهم يأكلون . وعليهم أن لا يتجادبوا أطراف الحديث وهم على المائدة ، وأن لا يتظلموا من جانب لآخر .

كذلك أمر الملك باخوميوس أن يطلب إلى رهبانه ترديد إثنتي عشر مزموراً في كل يوم ، وإثنتي عشر أخرى في كل مساء ، وإثنتي عشر ثالثة إبان الليل ، وعند ما يتقدمون للطعام يرتلون المزمور الكبير .

ولكن باخوميوس الذي هبت من خفة الأعباء المفروضة على الرهبان قال للملاك إن الأجزاء التي عينتها للقراءة قليلة جداً ، فأجابه الملك قائلاً : حقا إن الأجزاء التي عينتها قليلة ، وما ذلك إلا لكي يكون في وسع الضعفاء من الرهبان تنفيذ القوانين دون أن يتقاعسوا عنها ؛ أما الرهبان الذين بلغوا الكمال فأن اجتهادهم لا يحده قانون بأى حال ، لأن أذهانهم في كل الأوقات متجهة نحو الله ؛ غير أن القانون الموضوع فل هؤلاء الذين لم تكتمل أذهانهم حتى يمكنهم أداء الفروض وعلى وجوههم بهجة .

ومهما يكن من شيء فأننا ننقل هذه الأسطورة لا على سبيل الرواية الدينية . وإنما نظراً لما لها من الأهمية التاريخية الفائقة ، فقصة اللوح المكتوب والوصايا الستة وظهور الملك بها لباخوميوس لاشك مستقاة من العهد القديم وقصص موسى والوصايا العشرة ، ولكن منطوق القواعد الرهبانية الواردة فيها هو ما نسعى لتسجيله ، لأن هذه النواة المبدئية هي الأساس الذي بنى عليه القديس باخوميوس قوانينه الهائلة التي أحدثت نقلاً هاماً في الأوضاع الرهبانية المألوفة إلى ذلك الوقت ، وأثرت أبلغ التأثير في توجيه الأجيال القادمة في كل أقطار المسكونة ، لأنها أصبحت الأساس العظيم الذي ابنتى عليه الخلف الصالح تلك الأنظمة الديرية التي كانت الوسيلة الوحيدة الناجمة

للاحتفاظ بنور المدينة والحضارة في عصور الظلام الأولى بعد انهيار الدولة الرومانية ونزول جهافل المتبررين في أكتافها بالغرب والشرق .

باخوميوس الذي عانى في السنين الأولى من حياته الرهبانية كل ما كان يعانيه الفسك والمتوحدون من الولايات ، انتفع بتجاربه الأولى المقزعة كل الانتفاع ، وتفتحت عيناه إلى مافيا من أعباء مقزعة لا طائل تحنها ، وأدرك أن التقرب إلى ذات الله العلية ، وأن منجاة النفوس من شرور هذا العالم ، وأن كسب ملكوت السموات رجنة الخلد في العالم الآخر ، أدرك أن كل ذلك لا يتحتم من أجله أن يصلي الراهب نفسه ضروباً من تعذيب الجسد تفوق التصور .

حتماً إن باخوميوس كان جباراً مثل هؤلاء الجبابرة الذين كانوا يقضون عشرات السنين الطوال في عقر كهف مظلم أو قبر مهجور أو غرفة مهملة ، في بطن صحراء موحشة أو برية مخيفة ، ولكنه كان إلى جانب ذلك إنساناً يتميز عليهم بسمة الألق وتقدير الممكن والغير الممكن في طبيعة البشر ، ولذلك ارتاع من هول ما كان يجري في أكتاف الصحارى من ضروب البطولة التي لاتدعو إليها الحاجة ، ولا تختمها قواعد الدين ، فتأثر ثورته الهادئة الناضجة على تلك التقاليد ، وبدأ في وضع قوانينه التي أصبحت هدى ونبراساً يضئ الطريق للخلق العظيم من الرهبان ، فامتدوا بذلك النور الساطع الجديد ، وازدهروا حوله زرافات ووحداً من كل فج عميق . وعندما أسس ديره الأول قرابة دندره ، كان أول من تتلذذ عليه واهتدى بهديه ثلاثة من المتوحدين هم بسنتيس (Psentaesis) وسوروس (Surus) ويشويس (Psois) . وما هي ساعة أوضاعها إلا وأتاه الرهبان من كل حذب وصوب الانضمام إلى هذه الحركة الجديدة ، مما يدل على أن العالم كان في أشد الحاجة إلى هذا البعث الجديد في تطور النظام الرهباني الانفرادي ، وإلى تلك الحركة الديرية الاجتماعية المنظمة . فلما ضاق نطاق الدير الأول برهبانه ، أخذ باخوميوس في تأسيس المؤسسات الأخرى في منطقتي قنا وطيبة ، فهذا دير في ببو (Phau) ، وذلك آخر في مونكوزس (Monchosis) ، وتلك أديرة أخرى في ثيبو (Thebu) وبانوبوليس (Panopolis) وتاسي (Tase) وتسماني (Tismanae) وباخنوم (Pachnoum) ولاتوبوليس (Latopolis) وهكذا امتلأت الصحراء بمجمعات الرهبان الذين يحيون حياة اجتماعية إنسانية دينية على جانبي الوادي في تلك المناطق من صعيد مصر .

ويمكننا دون كبير عناء أن نتصور العبء الثقيل الذي وقع على كاهل هذا الزعيم الأكبر كنتيجة لذلك التوسع المضطرب السريع في هذا النظام من الحياة الديرية ، فباخوميوس كان دائم التنقل من مكان إلى مكان واعظاً مرشداً منظماً . وبكثرة تلك المؤسسات أصبحت القواعد الأصلية التي أوردناها نقلاً عن بلاديوس لا تكفي لضبط حكومة تلك الطائفة الكبيرة وذلك الجيش الهائل من الرهبان ، فجعل باخوميوس يزيد عليها ما تليه الحاجة وما تتطلبه الظروف التي نجمت عن تغير الأحوال الديرية . وربما كان هذا هو السر في أننا لا نجد قوانين باخوميوس في دورها الختامي مكتوبة بأكملها في مجموعة مხოوكة الأطراف ، أو مرسوم شامل جامع مانع كما هو الحال في قوانين القديس بندكت من القرن السادس بإيطاليا ، لأن دستور الجماعات الباخومية ككل الدساتير العظمى لم يسبق الحوادث ، وإنما كانت نصوصه نتيجة طبيعية لمجاهدة ما نجم عن هذه الحوادث والتطورات . لذلك أصبح لزاماً علينا أن نستنبط هذا الدستور العجيب مما لدينا من الأصول والتواريخ والآثار التي وصلتنا من الرحالة والحجاج الذين زاروا الأديرة الباخومية ودوتوا فيها مشاهداتهم عنها ، مثل بلاديوس وهيرونييموس ويوحنا كاسيان وجيروم وغيرهم .

وأخيراً جاءت ساعة الرقاد الأبدي إلى هذا الزعيم الأكبر ، بعد حياة حافلة بجلائل الأحداث والأعمال . عندما وقع الطاعون في مصر على ما قيل سنة ٣٤٨ ، وامتدت لهبه إلى الأديرة الباخومية تحصد الكثير من الأخوة ، فكان باخوميوس مثال الزعيم الحق ، ينتقل بين تلاميذه من المصابين عندما وقعت الكارثة بهم في كل مكان ، لتريض المرضى والمساهمة في دفن الموتى ، ولتقوية الجميع في إيمانهم بالصلاة ، غير مكترث بما يحفه من المخاطر ، حتى إذا ما فات عيد الصعود من تلك السنة إلا وبدأ هو أيضاً يشعر بأعراض المرض تهده هداً . فجمع أبناءه حوله وأوصاهم أن يتمسكوا بأهداب النظام الذي وضعه ، فلا يفترؤا في الصلاة أو العمل . وأنه متى جاءت الساعة فلهم أن ينتخبوا من يشاءون لرياستهم ، ولكنه يقترح عليهم مجرد اقتراح أن يكون خلفه بترونيوس (Petronius) ، ويتضح من ذلك أن باخوميوس لم يكن مستبداً في حكمته ، بل ديمقراطياً إذ ترك لجماعته حرية انتخاب من يرويه صالحاً لزعامتهم . وفي النهاية توفي باخوميوس يوم ١٥ مايو حسب التقويم اليوناني أو ٢٢ مايو حسب التقويم القبطي ، والغالب أن وفاته حدثت في سنة ٣٤٨ م وإن كان تحديد العام المضبوط لا يزال في نظرنا

موضوعاً للبحث والتنقيب . وكان عمر القديس باخوميوس وقتئذ سبعة وخمسين عاماً ، وهو عمر قصير جداً إذا قيس بأعمار الرهبان والمتوحدين الذي كانوا عادة يتوفون على القرن من الزمان . وبعد دفنه في مكان معين من الجبل نقل جثته أحد تلاميذه سرا إلى بقعة غير معلومة تنفيذاً لوصيته حتى لا يكون جسده محلاً للتبجيل أو العبادة .

وقبل أن نتصدى لتحليل قوانين باخوميوس ، يجدر بنا أن نلقى بنظرة عاجلة على ما وصلت إليه أديرته من الاتساع في حياته وبعد مماته إلى أوائل القرن الخامس ، وذلك من الاحصاءات التي وردت في كتب الرحالة من هذا العصر .

بلاد يوس يشهدنا بأن تلاميذ باخوميوس وأتباعه بلغوا ثلاثة آلاف في أثناء حياته ، وسبعة آلاف في سنة ٤٢٠م وهي السنة التي أتم فيها كتاب « بستان الرهبان » . وبوحننا كاسيان (Cassien) الكاتب الفرنسي الذي زار مناطق الرهبان المصريين حوالى نفس التاريخ يقدر عددهم بنحو خمسة آلاف راهب باخومي . ومن مؤلفات هذين الكاتبين فستنبط أن الدير الباخومي كان عادة يسكنه عدد يتراوح بين المائتين والثلاثمائة راهب ، ولو أن دير ببو (Pbau) كان يحتوي على ستمائة راهب حوالى منتصف القرن الرابع وما بين الف وثلثمائة ألف وأربعمائة راهب في ختام ذلك القرن . وقد ذكر القديس جيروم (St. Jerome) الذي كتب في عام ٤٠٤م أن عدد رهبان باخوميوس بلغوا آتذ خمسين الف راهب ، وهو تقدير مبالغ فيه ، وإن كان يدلنا من الناحية التاريخية عن أن أتباع باخوميوس زادت أعدادهم زيادة هائلة بسرعة خارقة . وأن تلك الزيادة المضطردة في حياة باخوميوس هي التي حثمت عليه وضع أسس ثابتة قوية لذلك النظام تجمله في الفقرات الآتية :

١ - شروط القبول :

كان على الشخص الذي يريد أن ينضم إلى دير من أديرة باخوميوس أن يقضى ثلاثة سنين تحت الاختبار ، لكي يثبت في أثناءها قدرته على ممارسة حياة البتولة والظهارة والخضوع لاحكام القانون . وفي هذه الفترة أيضاً كان لزاماً على المبتدئ أن يتعلم القراءة والكتابة ، وأن يحفظ عن ظهر قلب عشرين مزموراً من مزامير داود النبي في العهد القديم ورسالتين من رسائل العهد الجديد ، فتم له ذلك وزعت ملابسه على

الفقراء ، واستعريض عنها بالملابس الجديدة من الدير ، وسمح له بالانتقال من دار الضيافة الواقعة عند المدخل إلى قلالي الرهبان في داخل الدير .

٢ - الملابس :

كانت تمتاز بالبساطة التامة ، فالراهب يرتدى قيصاً قصيراً من غير أكمام يصل إلى الركب ، وله حزام يشد به وسطه ، وعلى كتفيه وظهره علققت فروة من فراء الخراف أو الماعز (وكانت تعتبر من مميزات الرهبان في ذلك الوقت) ، وفرقها عبادة خيطات بأعلاها فلنسوة الرأس التي كانوا يرسمون على جبهتها علامة الدير وهي عبارة عن صليب من مختلف الألوان للدلالة على المؤسسة التي ينتمي إليها الراهب ، وفي قدميه حذاء (صندل) مفتوح . وهذه الملابس بكاملها إنما كان يرتديها الراهب عند سفره خارج الدير فقط ، بينما كان وهو في الدير يكتفي بارتداء القميص القصير والحزام والطاقي التي أشرنا إليها فيما سبق ، وكان القميص مصنوعاً في العادة من التيل الخشن ، وكان الراهب يسير عارى القدمين .

٣ - الطعام :

كان يقدم للرهبان في قاعة المائدة مرتين في كل يوم ، ومواعيد تقديمه في الظهر وفي المساء ، ولكن لم يكن الحضور إلى القاعة إلزامياً ، وبعض الرهبان المتكشفين كانوا يفضلون البقاء في قلايهم ولا يتناولون سوى دفعة واحدة من الخبز والملح والماء في كل يوم عند غروب الشمس ، ولو أن باخوميوس لم يكن راغباً في تشجيع الأعراف في الزهد من هذه الناحية . والطعام عادة يتكوّن من الخبز والخضر والحساء والجبن والفأكة ، فالرهبان الباخوميون إذن كانوا نباتيين لا يحلّ لأكل اللحوم عندهم ، كما أنهم كانوا لا يشربون النبيذ والخمر ، اللهم إلا إذا كانت ظروف الراهب المريض تدعو إلى التجاوز عن هذه القيود باعتبار اللحم أو الخمر من الأدوية اللازمة في المرض . وكان الرهبان يدخلون قاعة الطعام حفاة الأقدام وهم لا يلبسون القميص والفروة والعباءة والطاقي والقلنسوة ، وبأكون ما يقدم إليهم في سكون دون أن ينظر الواحد منهم ذات العين وذات اليسار ، وفي أعلى القاعة واحد من الأخوة يقرأ فصولاً من الكتب المقدسة .

٤ - النوم :

القاعدة في النظام الباخومي هي سكنى الرهبان ثلاثة ثلاثة في كل قلاية من قلايات الدير ، وآثار القلايات الكاملة التي لانزال موجودة في بقايا دير القديس سمعان (انبا هدره) الواقع على التلال الصحراوية المواجهة لمدينة اسوان تدل دلالة واضحة على ذلك ، اذ نجد في كل منها ثلاث مصاطب لها رأس مرتفعة مصنوعة من الطين على شكل وسادة . وفي الوصايا الست يرد ذكر المقاعد ذات المساند للرأس في حالة النوم ، وقد استنتج بعض الناس ان رهبان باخوميوس استعاضوا عن النوم الكامل بالغفوة على مقعد ، ولكنني اعتقد ان هذا التفسير يثير الشك في ذهن الباحث ، ويغلب على الظن ان المقصود بالمقاعد التي فسرت حرفيا بالكراسي لم تكن سوى المصاطب التي تستند فيها الرأس على وسادة مبنية من نفس المادة التي عملت منها المصطبة ، وذلك لان باخوميوس اراد ان يخفف من اتعاب النوم الذي اعتاده النساك بالانبطاح ارضا وبدون اي مسند للرأس . ومهما تكن الحقيقة ، فلا شك ان الأخوة كان مفروضاً عليهم ان لا يناموا الا الهزيع الأول من الليل ، ففي الساعة السادسة التي هي منتصف الليل كان عليهم ان يقوموا للتسبيح والصلاة والتأمل الى ان يصبح الصبح ، وعليهم ان لا يتجاوزوا اطراف الحديث داخل قلايتهم . وكان من المسموح لهم ان يناموا على سقف القلاي في ليالي القيظ الشديد .

٥ - العمل اليدوي :

كانت الأعمال اليدوية ، في المؤسسات الباخومية ، اجبارية لا يعنى منها اي راهب حتى رؤساء الاديرة انفسهم ، وكانوا يجلسون في غير ساعات العمل المخصصة لادارة الاديرة للاشتراك في الأشغال التي يزاوها بقية الأخوة مثل جدل الحصر والسلال من سعف النخيل . وبعد العمل البدني من المميزات الرئيسية التي خرج بها باخوميوس على المؤلف عند النساك الاقدمين ، وذلك لحكمة مزدوجة : اولاً ان العمل وسيلة لكسب القوت الضروري للراهب الذي يجب ان لا يكون عالة على المجتمع او على غيره من الناس ، وثانياً لان للعمل فوائده الروحية الكبرى ، فهو يشغل العامل عن التفكير في الدنيا وشؤونها . ومن الأعمال الشائعة بينهم على ما ذكرنا صناعة الحصر والمقاطف من

سعف النخل وفنل الحبال من الليف ، يبيعونها جملة إلى سكان المدن المجاورة ، أو يستبدلون بها حاجات معاشهم ، أو يستعملون دخلهم منها في الإحسان على الفقراء والبائسين . لكن الأديرة الباخومية كانت في نفس الوقت وحدات مستقلة ، وقد دعا اتساعها ، وزيادة عدد سكانها إلى الشعب والتخصص في الصناعات القائمة بها ، لكي يقوم كل دير بسد حاجاته ، وذكر بلاديوس أنه رأى في أحد الأديرة المجاورة لمدينة بانوبوليس (Panopolis) خمسة عشر حائكا وسبعة حدادين وأربعة نجارين وإثنى عشر راعياً للجمال عدا المشتغلين بالحرث والزرع والعجن والحبز والطبخ وغير ذلك . ثم لا يفوتنا في هذا الصدد أن ننوه بوجود الكتاب والنساخ الذين تخصصوا في كتابة الكتب ونسخ المخطوطات بمكتبة الدير ، وهذا يقودنا إلى المسألة الحيوية التالية وهي مكانة العلم والتعليم في أديرة باخوميوس .

٦ - التعليم :

وكان إلى جانب العمل البدوي الشعبية الثانية من الثورة التي أحدثتها القديس باخوميوس على القديم . فبينما كان القدامى من المتوحدين يحتقرون القراءة والكتابة ولا يرغبون في اقتناء الكتب ويتجنبون الدرس والتعليم ، عمل باخوميوس على تطبيق هذه الفكرة من نظامه بصفة قاطعة ، ففرض على الأمية في أديرته قضاء مبرما ، وجعل معرفة القراءة والكتابة شرطاً من شروط الدخول في الدير ولا بد على الراغب من تحصيلها في سنى التجربة والاختيار الأولى . ثم أنه نظم ثلاثه دروس يومية في ذلك عند الساعات الأولى والثالثة والسادسة من النهار للبتدئين ، ودروساً أخرى عامة يعقدها رؤساء الأديرة بأنفسهم يومى الصيام الأسبوعى أى الأربعاء والجمعة في تفسير الكتب المقدسة والتعاليم المسيحية ، وكان حضورها إجبارياً على كل الأخوة . بيد أنه لا يستهوننا الكلام في هذا الموضوع للبالغه في قدر التعليم والعلوم الإنسانية بالأديرة الباخومية ، لأن التعليم لم يكن مقصوداً منه أكثر من توفير الأدوات اللازمة للراهب في قراءة الكتب المقدسة وكتب الصلوات وتاريخ الرسل والآباء والتعاليم الدينية البحتة . فالغرض من التعليم إذن كان دينياً قبيل كل اعتبار وليس دنيوياً بأى حال . ومهما يكن من شيء فإن التعليم في حد ذاته كان له أكبر الأثر في السمو بالأديرة الباخومية وما شابهها من المؤسسات التي ظهرت في القرون التالية في مختلف البقاع والاقطار حتى

أصبح الكثير منها يعتبر من المراكز الممتازة في عالم التعليم والعلم ، وأصبحت الأديرة بعدئذ الحصن الحصين الذي حفظت فيه مؤلفات آباء الكنيسة والآداب القديمة من عوادي الدهر على مر العصور . ومحتويات المكتبات الديرية كانت تتكون في العادة من الكتب المقدسة ، وكتب الوعظ ، وأقوال الآباء ، ورسائل التأمل والتصوف ، وحياة القديسين ، والشروح ، وكتب الصلوات ، وغير ذلك من موضوعات الآداب الدينية ، ولكننا أحيانا نعثر بينها على القصص والتاريخ والآداب الذي هو على هامش الدين ويمت الدنيا بصللة بعيدة أو قريبة ، وكانت المكتبة مفتوحة على مصراعها لكل قارى يريد الاستفادة بما فيها .

٧ - العبادة :

وكان لها نظام ثابت ، كما كانت تنقسم إلى قسمين ، العبادة أو الصلاة الاجتماعية والعبادة أو الصلاة الانفرادية . أما الصلاة الاجتماعية فكانت تقام بالكنيسة مرات ثلاثاً كل يوم في الصباح الباكر وعند الظهر وفي المساء ، ويحضرها الرهبان بكامل عددهم . أما الصلاة الانفرادية فكان أمرها موكولا للرهبان في صوامعهم ، يتابعون فيها عباداتهم وتأملاتهم حسب اجتهادهم ، وعلى كل حال كان مفروضاً على الراهب أن يصحو للصلاة من منتصف الليل إلى الفجر - ويحتمل بالقداس الإلهي الكبير يومى السبت والأحد حيث يتناول الرهبان العشاء الرباني - أما الاسراف في التعذيب والعيول وصرير الأسنان الذي كان جزءاً من التعاليم الأنطونية فان باخوميوس لم يشجع رهبانه على مزاولته بالرغم من أنه لم يحرمه تحريماً باتاً .

٨ - العقاب :

كان من لزوميات الجماعات الكبرى أن توجد القوانين الرادعة للخارجين على النظام أو المستهترين به، ولذلك لم يجد باخوميوس بداً من استعمال الشدة مع المخالفين حتى في أنفه الأخطاء . وكان العقاب على درجات ، أما الدرجة الأولى فهي اللوم والتوبيخ العاني والحرمان من وجبات الطعام الأخطاء الصغرى كالضحك أو النظر يميناً أو يساراً أثناء تناول الطعام ، والدرجة الثانية وهي العقاب البدني أو الجلد بالسياط وحبس الراهب في قلايته فكان من نصيب المتأففين والمتذميرين ومن على شاكهم ،

والدرجة الثالثة وهي الحرمان والطرود من الدير فكانت توقع على كل من يقترف جريمة من الجرائم الكبرى التي تعدو حد التذمر والتردد في طاعة الرؤساء ولمن لا يرجي لهم صلاح .

٩ - الأدارة :

وفي تنظيمها الدقيق تنضح عبقرية باخوميوس النادرة ، ومقدرته الفائقة في تأسيس حكومة ثابتة الأركان ، ذات دستور محبوك الحلقات . وقد قسم باخوميوس الأدارة إلى قسميها الطبيعيين وهما الأدارة المحلية لكل دير والحكومة المركزية لجميع الأديرة . وفي كلا الإدارتين كانت الطاعة المطلقة أساس الدستور ، وقد ذكر لنا المعاصرون أمثلة عجيبة للتدليل على روح الطاعة العمياء بين الرهبان ، منها أن الرئيس إذا طلب واحداً من الأخوة وهو يكتب ترك القلم عند آخر حرف كان يكتبه وسارع إلى تلبية أمره ثم يعود إلى أكال الكلمة التي لم يتم كتابتها . وذلك راجع بلا نزاع إلى تلك التعاليم التي اكتسبها باخوميوس وهو في سلك الجندية الرومانية . أما الأدارة المحلية للدير فكانت توكل إلى رئيسه ، ولكل رئيس نائب يساعده في الإشراف على الأعمال اليومية العادية التي تتطلبها الدير ، ثم أنه كان لكل دير أمين لا يزال حتى اليوم يدعى «رئيسه» في الأديرة القبطية ، وربما كانت هذه التسمية مشتقة من كلمتي «رب البيت» باعتبار صاحبها أميناً على خزان الدير ومخازنه ، والمكتبة أيضاً خازن وكان من النساخ عادة ، وهناك المعلمون والحجازون والنجارون والبناؤون والحدادون والزارعون والناجسون والجمالون وغيرهم من الفئات التي تتطلبها ظروف الحال في كل دير حسب المنطقة التي يكون فيها ، ولكل من هذه الفئات رئيس يشرف على عملها تحت رعاية رئيس الدير أو نائبه ، ولما كثر الرهبان وتنوعوا في الأديرة الباخومية قسموا إلى أسر وكل أسرة منها تضم رهبان أمة معينة ، ومن المعلوم أن حياة الشركة في تلك الأديرة اجتذبت الرهبان من أمة متباينة مثل السريان واليونان واللاتين وغيرهم ، وكان لكل أسرة معلم من جنسها يقوى على التفاهم مع أبناء جلدته وإرشادهم ، ومن الجائز أن هذا النظام هو الذي ورثته الجامعات في العصور الوسطى حيث انتشر في رهبانها نظام الأمام ، وكان منها في جامعة باريس خمس أمام تشمل الفرنسيين والإنجليز والبرمنديين والبيكرديين والنرمان والبريطان ، وربما أخذ عن هذا النظام أيضاً الأروقة الذي ساد الجامعة الأزهرية إلى عهد قريب مثل أروقة

الصميدة والبحرورة والمغاربة والشرافرة والأهباش وغيرهم . ثم أن باخوميوس قرر أن الدير الذي يعتبر وحدة قائمة بذاتها لا يجب أن يكون في معزل عن الأديرة الأخرى . وهنا يبدأ نظام المركزية الدقيق ويتدرج إلى أن يصل به إلى الإدارة البيروقراطية العليا في الدير الرئيسي الذي يقيم في رياسته أب الشركة أو الرئيس الأعلى وهو خليفة باخوميوس . وكان كل ثلاثة أو أربعة من الأديرة المتقاربة يكونون ما يسمى بالقبيلة ، ويشترك رؤساؤها في انتخاب واحد من بينهم ليكون زعيماً لذلك القبيلة ، وهم يجتمعون من وقت لآخر للتشاور فيما يلاقونه من صعاب وفيما يهمهم من الأمور . وجميع الرؤساء وزعماء القبائل يخضعون خضوعاً تاماً مطلقاً لارجوة فيه ولا نقاش ولا استئناف للرئيس العام ، وإشراف هذا الرئيس العام يأتي عن طرفين ، الطريق الأول هو الزيارة ، وكان باخوميوس دائم الحركة دائم التنقل بين أديرته للتفتيش عليها والعلم بدقائق أحوالها ، ولا شك أن بترونيوس الذي خلفه في الرياسة بعد مماته ثم من تلاهما من الرؤساء كانوا يفسجون على منوال أبيهم الروحي الأكبر . والطريق الثاني مركزي يتلخص في عقد اجتماعين عامين في كل سنة ، وكان جميع رهبان المؤسسات الباخومية يحضرون هاتين الاجتماعيتين في الدير الرئيسي في بيو (Pbau) أو دير الرياسة العليا إذا انتقلت منه غيره . وتحدد للاجتماع الأول موسم القيامة للاحتفال بعيد الصعود وهو من أهم أعياد القبط إن لم يكن أهمها قاطبة ، والاجتماع الثاني يقع في الثاني والعشرين من شهر مسرى من الشهور القبطية وهو يوافق الثالث عشر من شهر اغسطس ، والغرض من هذا الأخير بحث حالة الأديرة الداخلية والخارجية وتقديم التقارير الخاصة بكل دير منها ، وبعد طرح مسائل الأديرة على بساط البحث ومحاسبة كل رئيس عما قدمت يدها في أثناء العام المنصرم ، يقرر المجلس السياسة العليا العامة التي يجب على الرؤساء اتباعها لحسن سير العمل والنظام والعبادة في جميع الأديرة ، ثم يعلن الرئيس العام أسماء الرؤساء الفرعيين الجدد كما يعلن التنقلات بين رؤساء مختلف الأديرة ، وأخيراً في جلسة ختامية يحضرها الرهبان قاطبة ، تعقد فيه صلاة جامعة ، وفي مشهد رهيب مؤثر يعلنون مغفرة الخطايا والصمغ العام عن ذنوب المذنبين ، ويبارك الرئيس الأعلى جميع الحاضرين .

هذا هو مجمل قوانين باخوميوس التي حاولنا أن نجملها في صعيد واحد ، ولكن

من العبث الادعاء بأن هذا هو كل ما ينطوي عليه ذلك النظام ، فان هنالك موضوعات صغرى لا يتسع المقام لاحصائها . خذ مثلاً العناية بالمرضى والضعفاء ، فقد خصص لهم نظام باخوميوس الانسانى موضعاً يجمع فيه شملهم ، ويولاهم من العناية ما هم أهل له ، فيعفيهم من قيود الطعام المفروضة على عامة الأخوة ، ويعودهم الأطباء الجثائيون والروحانيون للاشراف على حالتهم . ثم موضوع الزوار والأغرب والحجاج وكان يوجد منهم بلا شك سبل متواصل على اديرة باخوميوس ، وكانت القاعدة السائدة في الأديرة هي الترحيب بضيوفهم ومما ملتهم بالحنى والآكرام ، فيقابلهم الرهبان ويفسلون أقدامهم ، ويقدمون لهم الطعام والشراب اللازم لهم ، كل ذلك في بيت الضيافة الملاصق لمدخل الدير وداخل جدرانه بدون أن يكون على اتصال برحبته وقلائيه الداخلية المخصصة للرهبان . وخلاصة المقال ان حياة الشركة كانت فتحاً جديداً مبنياً في تاريخ الرهبانية ، اصولها الرئيسية هي البتولة والطهارة وحياة الفقر والطاعة والعبادة والعمل اليدوى والأخذ بقسط من التعليم وقبس العلوم الدينية . وكان هذا النظام العجيب الكامل مظهراً رائعاً للحكم الرشيد المستنير في زمن كانت الفوضى ضاربة اطنابها في ارجاء الامبراطورية الرومانية التي اخذت هيبتها في الزوال والتدهور ، وحل في ارجائها محل السلام الرومانى ذلك التخبط الذى اصطحب بغزوات المتبربرين في القرن الخامس الميلادى .

كانت تلك الأديرة الباخومية مثلاً اعلى في الأمن والسلام والنظام والحياة الراضية ، في عالم منهار ملاءه الفزع والفوضى ، وشمله القنوط والدمار . وكان إذن اتجاه انظار الناس إلى هذه المؤسسات التي هرعوا اليها بالمتين والآلاف امراً طبيعياً في ذلك العصر الذى سادته الروح الديفية ، واخذ الفكر المسيحى فيه على الخلق قلوبهم والباهم . وكان كل دير من هذه الأديرة عبارة عن حصن زاخر بالحركة والنشاط ، تحيط به الجدران الرومانية السميكه الشاهقه التي تبلغ حوالى الثلاثين متراً في الارتفاع ، لحماية سكانه من غارات التفتيش التي كان يشنها عمال الحكومة عليهم في زمن الاضطهاد ، ومن عدوان الممتدين من عصابات النهب والسلب التي كانت تموج بها فلول الوادى . ومدخل الدير ليس إلا فتحة مستطيلة صغيرة لا يستطيع اكثر من رجلين او ثلاثة اقتحامها دفعة واحدة ، فضلاً عن كونه محصناً بيايين من افلاق الخشب الكشيفة المبطنه بألواح الحديد والمسامير ذات الرموس الغليظة زيادة في التحفظ ، وعلى قمة السور ممشى داخلى

طويل للحراس والخبراء ، وفوق البواب فتحة يطل منها البواب عندما يذق ناقوس
الدير إذا طرقة طارق بواسطة حبل قد تدل إلى الخارج لهذا الغرض . وبجانب الباب
في ملاصقة السور من الداخل بيت الضيافة لا يوا. الغرباء الذين لم يسمح لهم بالتنقل
في رحبات الدير الداخلية المخصصة للرهبان والتي كان بها عدد كبير من المباني المختلفة ،
أهمها الكاتدرائية الكبرى عدا الكنائس الصغرى ، وقاعة الاجتماعات المخصصة للجامع
والاستقبال والدروس العامة ، والمكتبة ، وغرفة المائدة وكانت عادة مستطيلة تتوسطها
المائدة الطويلة وعلى جانبيها أحيانا دكتان طريقتان وكل هذه بنيت من الحجر المنحوت
خصيصاً لهذا الغرض ، والمطبخ الرحيب ، والأفران ، ومخازن الغلال والملح والملابس
وغير ذلك من الأدوات ، والصوامع أو قلالى الرهبان وكان عددها كبيراً تقام إلى
جانب السور في صفوف طويلة ، وفي الدير مساحة واسعة خالية من المباني تزرع فيها
الأشجار والبساتين ، ويجلس فيها الرهبان لمزاولة الأعمال اليدوية مثل صناعة الحصر
والسلال وغيرها ، وبها آبار المياه تقام عليها السواقي والشواديخ ، وحظيرة البهائم
المستعملة في الحرث والزرع وإدارة السواقي . وفي قلب الدير وسط هذه المباني حصن
مربع شاهق متصل مع سقف أحد المؤسسات الأخرى بقنطرة متحركة من دور من
أدواره العليا ، يلتجئ إليه الرهبان وقت الضرورة القسوى عندما يقتحم الدير ، وفي
هذا الحصن كنيسة ومخازن للطعام المخفف المحفوظ بها وبئر للارتواء منه عند الحصار .
وكل هذه الأجزاء لا تزال واضحة في الأديرة الرومانية العامرة بأرض مصر .

٥ - الرابطة سُوروه ونظام

لا نزاع أن العالم يدين بالفضل الأكبر في تأسيس حياة الشركة على ذلك الوجه
الإنساني للقديس باخوميوس . ولكن من الخطأ أن يظن أن مصر حتى في هذا
العصر المتقدم كانت خلوا من الأديرة إلا ما أنشأه باخوميوس . ذلك لأن الحركة
تدريية كانت قد بدأت جذورها تمتد في مختلف البقاع بالديار المصرية ، وكان نموها
أمراً طبيعياً للأسباب التي أوضحناها ، وقد ظهرت معالمها بأشكال متنوعة بالرغم من
أنها لم تبلغ درجة السكال والدقة والنظام الذي يرجع لعقوبة باخوميوس . مثال ذلك
ما حدث في وادي النطرون حيث أخذ أتباع آمون وأبي مقار وغيرهما من القديسين

في إنشاء الأديرة التي لا يزال شاخصا من بينها أربعة أديرة تعتبر من درر الصحراء
القرية هي دير البراموس وأبنا بشوى والسريان وأبي مقار. ولا شك أن للصلة الدائمة
بين قديسي هذا العصر أكبر الأثر في ازدهار الحركة الديرية. ونحن نعلم أن باخوميوس
زار آمون في وادي النطرون ، وأن أبا مقار الكبير زار باخوميوس في الصعيد الأعلى ،
وكانت زيارة هذا الأخير خفية ، ولكن أمره لم يخف على باخوميوس إذ شاهده وهو
يصوم أربعين يوما كاملة ، فأدرك أنه لا يستطيع إتيان هذا الأمر العظيم إلا أبو مقار .
وهذا التزاور بين أولئك القديسين كان بلا غرو مصدراً لتبادل الأفكار واقتباس المبادئ
والتعاليم والمثل العليا ، مما أثر تأثيراً مباشراً على نشر حياة الشركة في درجات مختلفة بين
مختلف الجماعات الرهبانية التي سكنت الفقار والصحارى .

وكان من بين هذه المراكز العديدة مركز آخر على جانب عظيم من الأهمية والخطورة
في تاريخ الديرية والقومية المصرية على السواء ، ولا زال مع الأسف هنالك قصور في
البحث والتنقيب في مختلف مناحيه ، ومعلوماتنا بتفاصيله إذا قيست بما نعلمه عن
الجماعات الباخومية سطحية ونافهة لأسباب سنجملها فيما بعد . وهذا المركز الجديد كان
يقع في قرابة سوهاج أو بالأحرى قرب بانوبوليس وهي مدينة أخميم الحالية
حيث أنشأ الأنبا شنوده نظاماً اجتماعياً شبيهاً بحياة الشركة لدى باخوميوس ، غير أنه
كان أشد عنفاً أو أقل إنسانية من نظام زميله ومعاصره في منطقتي طيبة وقنا . وشنوده
كان رجلاً شديد المراس بالطبع ، وكان من أئمة العاملين على تهذيب اللغة القبطية ،
وآدابها الدينية من التأثيرات البيزنطية . وهذه الحركة في الواقع جزء من حركة أوسع
منها بدأت في حجر الكنييسة القبطية ، وتلخص في بقظة الوعي القومي المصري .
والعمل على تحقيق استقلال مصر من الناحية الدينية عن القسطنطينية ، تلك الحركة التي
أخذت في الاضطراد حتى شملت الحياة الاجتماعية المصرية ، وتطورت في النهاية إلى
درجة الطموح إلى الاستقلال السياسي عن الدولة البيزنطية . من ذلك يتضح أن شنوده
كان لحد ما من بناة أول مشروع استقلالي لهذا الوطن منذ انهياره في عهد الوثنية
القديمة على يد قبيل الفارسي سنة ٥٢٥ ق . م .

والأنبا شنوده كما ذكرنا عاصر الأنبا باخوميوس في أثناء سني نسكه الأولى .
ولد في سنة ٣٢٣ وتوفي عند ظهر اليوم الثاني من أيام شهر يولييه سنة ٤٥١ م ، وكان
قد طعن في السن وبلغ الثامنة عشرة بعد المائة ، ذلك بالرغم من إغراقه في التقشف

والعيش على الكفاف . ويلوح للباحث أنه لم يرض عن نظام باخوميوس كل الرضى ، فاعتبر أن فيه تساهلا كبيرا . ومع احتفاظه بتعاليم الشركة أدخل عليها من التعديلات ما جعل حياة الآخوة في رعايته أصعب وأشد مما كانت عليه الأوضاع المقبولة عند باخوميوس . وكان شنوده يهادى كل شيء بين نظى ، وهذا يفسر لنا موقفه العنيف من نسطوروس والحركة النسطورية في القسطنطينية ، كما يفسر لنا الفرق الهائل بين مؤسساته ومؤسسات باخوميوس من زاوية أخرى ، إذ بينما كانت هذه الأخيرة دولية في طابعها يقصدها المصري والبيزنطى واللاتينى والفاسطينى واللبيى والأفريقى على السواء ، أصبحت الأولى قاصرة على المواطنين من الرهبان المصريين الأقباط لحسب . وهذا الوضع الضيق يوضح لنا أيضا قلة المعلومات التى أشرنا إليها فى كتب الرحالة والحجاج الذين درجوا على زيارة مؤسسات الآباء المصريين فى أقصى القفار المصرية ، لاسيا بلاد يوس الذى لم يورد فى كتاب « بستان الرهبان » أى إشارة للأنبا شنوده أو جماعته الرهبانية . وليس من المعقول أن بلاد يوس كان جاهلا بوجودها ، وأغلب الظن أنه لم يستأخ مبادئها ، فأثر أن لا يتعرض للكلام عنها وعن مؤسساتها .

ومن الغريب الذى لا نستطيع إيضاحه أو تعليله ، هو أنه بالرغم من موقف الأنبا شنوده القومى البحت ، تقف امبراطورة بيزنطية عظيمة موقف الصداقة من تخليد ذكراه ، وتدعيم نظامه ، ورعاية أتباعه . تلك هى الامبراطورة هيلانه زوجة الامبراطور قسطنطين الكبير ، فقد اقبلت له « الدير الأبيض » الذى لا تزال كنيسته موجودة وتقام فيها الشعائر الدينية حتى يومنا هذا ، والذى أصبح المركز الرئيسى لجماعات الأنبا شنوده . فهل كانت الامبراطورة بهذا العمل تريد استمالة باخوميوس إلى القسطنطينية ؟ أو هل كانت حركة شنوده لم تزل فى عهدها الاول غير واضحة الاتجاهات والنوايا التى تتعارض مع الميول البيزنطية ؟ هذا ما لا نستطيع الاجابة عليه إلى الآن ، والمستقبل وحده كفيل بجلاء الغموض الذى تنطوى عليه قوانين أنبا شنوده وعلاقاته الدقيقة مع من عاصره من الحكام .

٦ — أنظمت باخوميوس

في العالم المعاصر وفي التاريخ

ليس من العجب بعد ما أوضحناه أن يذيع صيت باخوميوس ، وأن تنتشر قوانينه في الديار المصرية وفيما وراء حدود مصر . فإننا نجد الأديرة الباخومية تبتنى من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال في طول الديار المصرية وعرضها . وهذا هو دير القديس سمعان (الأنبا هدره) لازالت آثاره شاخصة في مواجهة مدينة اسوان ، بالرغم من أن صلاح الدين الأيوبي أعمل فيه معاول الهدم سنة ١١٧٢ م ، كما يقال إن قرابة مدينة كانوب عند مصب فرع الدلتا الكانوني على ساحل الاسكندرية الشرقي كان يوجد دير باخومي زاهر ، وهذا هو معبد أبو صير القديم على مسيرة عشرات من الكيلومترات على ساحل البحر الأبيض المتوسط غرب الاسكندرية في منطقة مريوط وقد حوّلته النساك إلى دير جليل في العصر الروماني مازالت آثاره قلاليه وصوامعه قائمة بجوار أسواره من الداخل ، وأسس كنيسته في رحبة المعبد الوسطى منظورة لمدرسة . ثم ان القديس باسيلوس الكبير اليوناني الأصل وصاحب النظام الديرى الذى يقترن بمؤسسات جبل آثوس في بلاد اليونان ، إنما يرجع الفضل الأول في تعاليمه وفي إدخال الأنظمة الجديدة بتلك البلاد إلى باخوميوس ، ومن المعلوم أنه عاش عدة سنين في أديرتة بالصعيد وأنه تلمذ عليه .

يلاحظ كذلك أن القديس أنناسيوس الكبير بطريرك الكنيسة السكندرية قد حمل التعاليم الباخومية إلى أوروبا الغربية في رحلته المعروفة عندما نفي عن الاسكندرية ، ولا سيما في رحلته الثانية عندما نفاه الامبراطور قسطنطين إلى روما ، حيث قضى هنالك القدر الأكبر من المدة الواقعة بين سنة ٣٤٠ وسنة ٣٤٦ ، وفي هذه المرة الأخيرة عرض على البابا يوليوس الأول أسقف روما نتيجة الأعمال الهائلة التي كان باخوميوس يقوم بها في مصر ، فكانت موضع الإعجاب والتقدير ، وبذلك مهد للاقتباس من قبسها ، والهدى هديها . كما أن القديس جيروم (St. Jerome) ترجم قوانين باخوميوس وآثاره إلى اللغة اللاتينية في عام ٤٠٤ م ونشره بين الرهبان الإبطاليين ، بينما نقل يوحنا كاسيان في أثناء النصف الأول من القرن الخامس حياة الآباء المصريين

وأقوالهم وأقاصيصهم وأنظمتهم في أربعة مجلدات لاستعمالها بين الرهبان المقيمين في
قفار غرب أوروبا وعلى وجه أشخص أوائل الذين كانوا يسكنون جنوب بلاد الغال
(فرنسا) . ثم أنه حاول فعلاً تطبيق تعاليمهم في الدير الذي أسسه في مدينة مرسيليا
على ساحل فرنسا الجنوبي .

وهناك راهب غربي آخر يدعى ديونيسيوس الصغير المتوفى سنة ٥٤٥
(Dionysius Exiguus أو بالفرنسية Denys - Le-Petit) ترجم إلى اللغة
اللاتينية تاريخ حياة باخوميوس وقصة انظمته وقوانينه عن اللغة الأثرية في أثناء
النصف الأول من القرن السادس . وهذه الترجمة وإن لم تكن مصدراً من الطراز
الأول لتاريخ حياة الشركة ، إلا أن وجودها وتداولها مع غيرها من التراجم السابقة
في أوروبا ليدلنا دلالة واضحة على مدى انتشار الأفكار الباخومية والتمهيد لإدخالها في
النظم الرهبانية بالغرب لاسيما وأن أوروبا كانت وقتئذ على عتبة قيام حركة الديرية
البندكتية .

وربما كان أبقى آثار قوانين باخوميوس وأهمها في أوروبا هو ذلك الأثر الذي
انطبع به نظام الديرية البندكتية . وإذا كان القديس باخوميوس قد عمل على تكييف
الحياة الرهبانية على أسس اجتماعية تتفق وظروف مصر في القرن الرابع ، فإن بندكت
اقتفى أثر سلفه في وضع قانونه الجديد لكي يناسب أحوال إيطاليا في القرن السادس .
ودير مونت كاسينو (Monte Cassino) في أواسط إيطاليا لا يكاد يختلف
اختلافاً يبيّن في مجمله عن أديرة فنا في العهد الأعلى . ولا يتسع المجال هنا لمقارنة
تفاصيل قوانين وانظمة هذين القديسين ، لأن ذلك موضوع دراسة خاصة مطوّلة ،
ولكن ما يعيننا هنا في هذا الصدد هو أثبات ما يدين به القديس بندكت للقديس
باخوميوس من حيث اقتباس الكثير من أفكاره في حياة الشركة وفي النظام والعمل
البدني والعقلي والطاعة المطلقة للرؤساء وتنقيف الرهبان إلى جانب الشروط الأصلية
في الحياة الرهبانية كالبتولة والطهارة والفقر ، وقد قيل إن الأول نقل في بعض الأحيان
نقلًا حرفياً من قوانين الآخر . ونظراً لما كان يتمتع به بندكت بين اللاتين من مركز
ممتاز ، فقد انتشرت التعاليم الباخومية عن طريقه في أوروبا انتشاراً واسعاً وسريعاً ،
ومنذئذ أخذ التاريخ الرهباني في الغرب صبغةً مصرية جديدة هي صبغة إنسانية وروحانية
في نفس الوقت .

غير أن حياة الشركة التي يرجع تأسيسها وتنظيمها إلى القديس باخوميوس في القرن الرابع لم تقتصر آثارها على الديرية البندكتية في القرن السادس ، وإنما تعدتها إلى أوروبا في جملتها خلال القرون الوسطى التالية . وإن للباحث في زوايا التاريخ الأوربي بالقرن العاشر أن يتسامل بحق عما إذا كانت تعاليم باخوميوس قد أثرت تأثيراً مباشراً في حركة الإصلاح الكلوني (نسبة إلى Cluny الواقعة في فرنسا على مقربة من حدود ألمانيا) ، تلك الحركة الكبرى التي كان لها أثرها الدائم في توجيه المدينة في العصور الوسطى ، وفي إحياء تلك الروح الفذة التي هدمتها النزعة الانفصالية والاستقلال الذاتي بين مؤسسات القديس بندكت ، إذ أن قانون بندكت الأصلي كان قد تجارز عن النصوص التي ربطت بخلف الأديرة الباخومية برباط واحد ، حتى يتم التعاون بينها ، وحتى يصلح المحسن بينها من زلة المسمى . وكان هذا التجاوز مصدر الزلل والندهور في كثير من الأديرة البندكتية ، لذلك عمد آباء كلوني إلى الاستيحاء بوحى الماضي البعيد من تعاليم باخوميوس في توطيد أو أصر الصلات بين الأديرة الكلونية ، فجعلوا من رئيس ديرهم الأصلي زعيماً وراعياً ورئيساً عاماً يخضع لسلطان رؤساء الأديرة الفهرية قاطبة ، ويدعون له بفروض الطاعة المطلقة . ثم أنهم لم يقتصروا في إصلاحهم على ذلك ، بل قرروا عقد اجتماعين سنويين لجميع الرؤساء بقصد الشورى في أمورهم ، وتقديم التقارير عن أعمالهم في أديرتهم ، وإسداء النصائح المتبادل بين رئيسهم الأعلى وبينهم ، ورغم السياسة العليا التي يسرون بمقتضاها في عامة أعمالهم والكلونيون في كل هذا يذكر ونا بأحداث القرن الرابع بقوانين باخوميوس وأنظمتها التي تحمل أوجه الشبه العجيبة لها . وإن هذا العجب ليتضامل أو يبطل إذا تذكرنا أن المؤلفات اللاتينية التي كتبتها يوحنا كاسيان والقديس جبروم وغيرهما عن آباء الصحراوات المصرية وعن قوانين باخوميوس وأنظمتها ظلت منتشرة تتداولها أيدي الرهبان المتعلمين في بلاد (غاله) التي هي منبت الحركة الكلونية خلال القرون الوسطى ، فكان طبيعياً أن يرجع المصلحون في الغرب إلى ما جاء بها من تعاليم الأوائل والآخر بها .

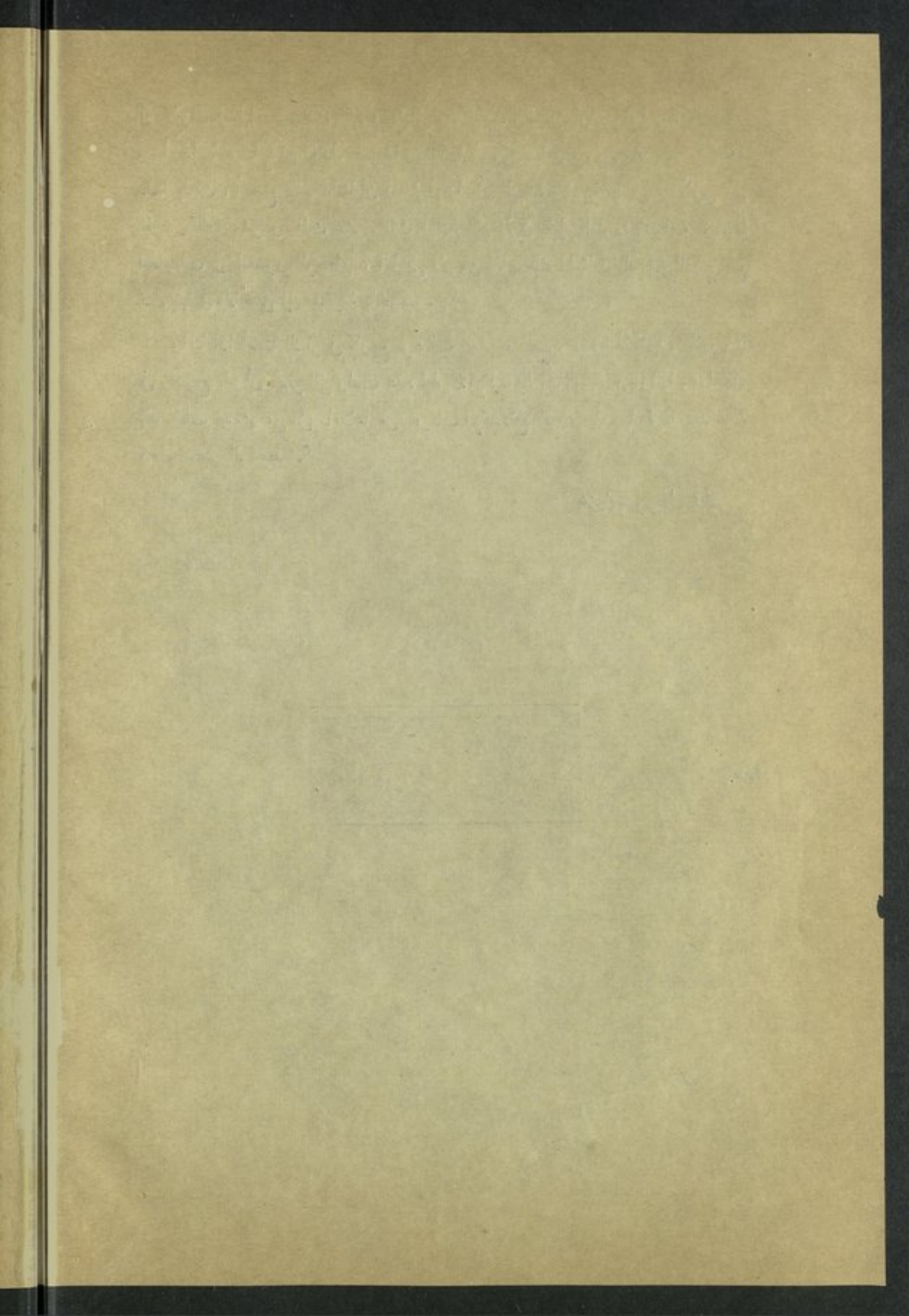
وليس من العبث أو البهتان أن نقول إن حركة قيام الجماعات الرهبانية الجديدة المحكّمة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر مثل اخوان جراندمونت (Grandmont) والكارثوزيان (Carthusians) والسسترشيان (Cistercians) وغيرها كثير إنما جاءت في أثر الحركة الكلونية ، كما تلاها في عهد لاحق جماعات الفرنسيسكان والدومنيكان

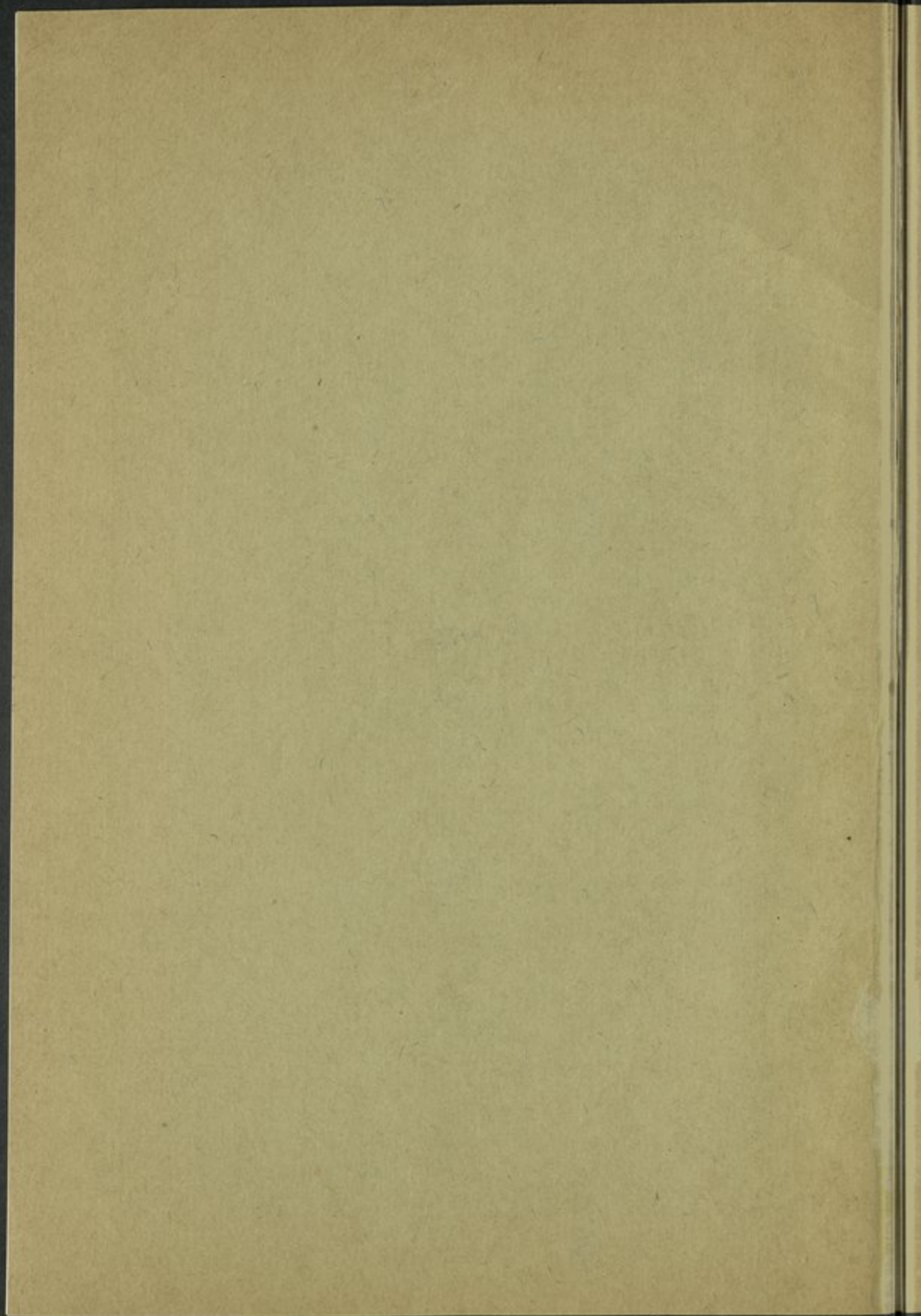
التي لا يزال فضلها معروفا الى اليوم . ليس من العبث والبهتان أن نقول ان تلك السلسلة من أولها لآخرها يمكن اقتفاء أصولها ومنابعها في وحى باخوميوس المصري . واذا سلمنا بذلك ، أصبح لزاما علينا أن نسلم أيضاً بأن النهضة الأدبية الفكرية الأولى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، تلك النهضة التي تقترن بقيام العلوم الإنسانية ونشأة الجامعات في العصور الوسطى ، إنما هي أثر من آثار تلك الهيئات الديرية التي يرجع تكوينها في الأصل الى عبقرية باخوميوس .

واننا اذا أمعنا النظر في تاريخ الرهبانية العام على ضوء هذه الحقائق ، لأدركنا في وضوح تام أن مصر التي ولدت هذه الحركة الإنسانية الهائلة في صحراواتها وقفارها ، إنما ظلت تهيمن على كل ما تلاها من حركات الإصلاح الديرية بأوربا قرناً بعد قرن زهاء العصر الوسيط .

عزير سوربال عطية

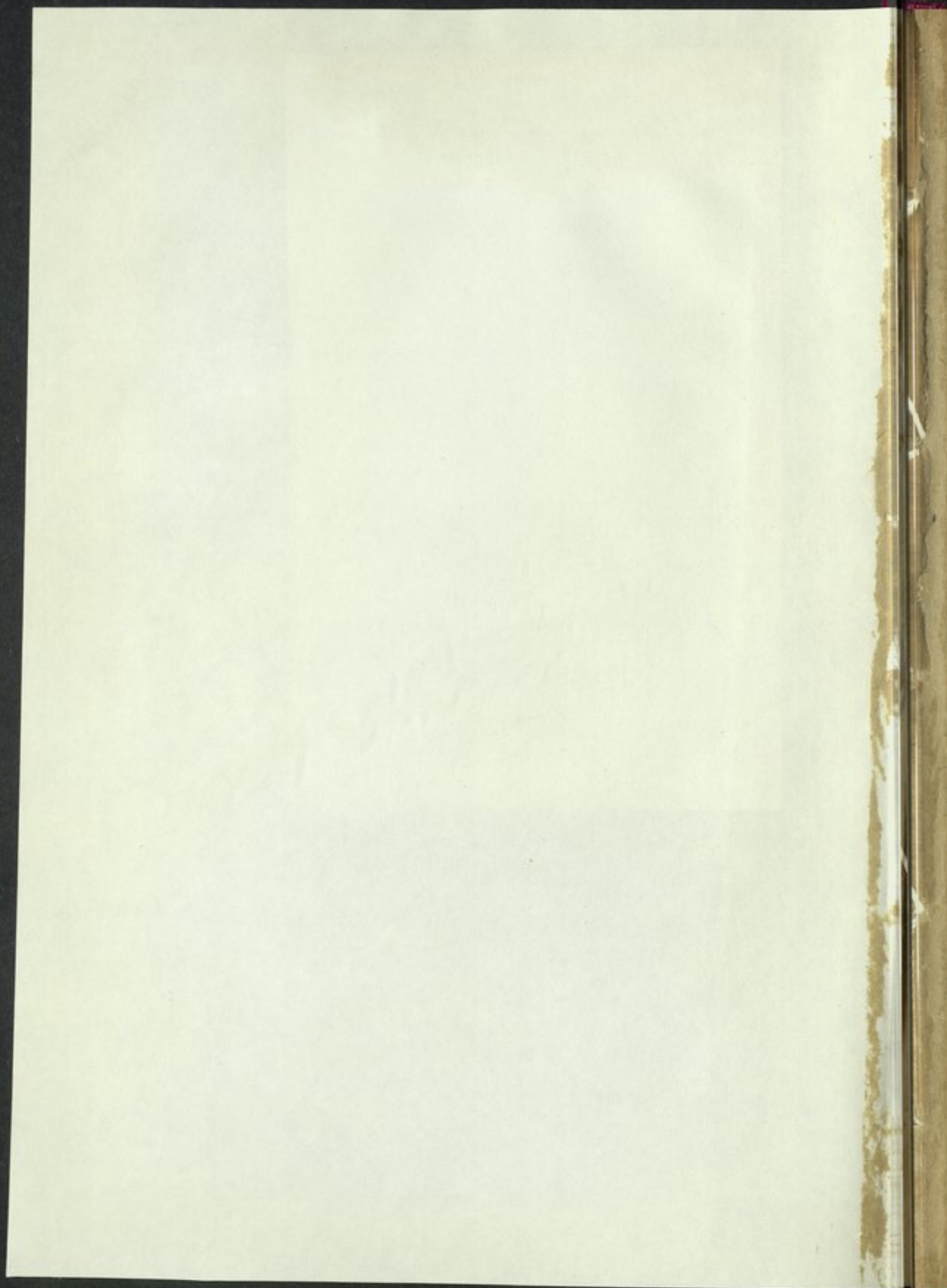






مطبعة مسيلين

تليقون ٢١٩١٢ اسكندرية



A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00304566

